

ديسمبر 2013

398

الأبدية بعيدة جدًا

وقصص أخرى

تأليف: تيه نينغ
ترجمة وتقديم: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز
مراجعة: لي جيه



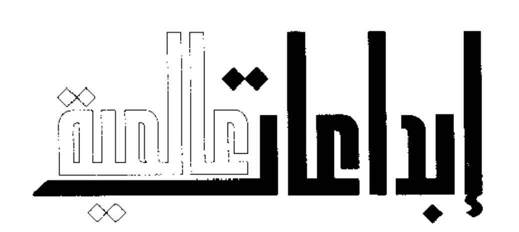
الأبدية بعيدة جدا

وقصص أخرى

تـــألـــيــف: تيه نينغ

ترجمة وتقديم: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مـــراجـــعـــة: لي جيه



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

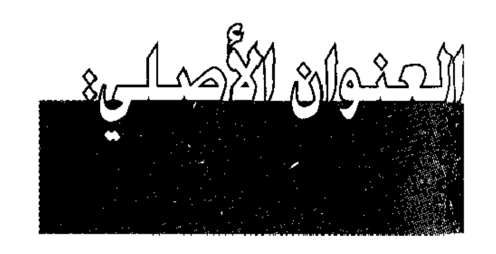
التنضيد والتدقيق اللغوي والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٦٣٢

ردمك: ٤-٤٠٥-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨

• الأبدية بعيدة جدا وقصص أخرى



永远有多远
铁凝著
北京燕山出版社
2008 年

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2013م

إبداعات عالمية - العدد 398

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

الفهرس

المقدمة

أنجبت الصين ثلة من الكتاب في العصر الحاضر الذين وضعوا إرهاصات الأدب الصيني المعاصر في مرحلة مهمة من مراحل تطور الصين وانفتاحها على العالم الخارجي، بعد أن جثمت العزلة على صدرها زهاء ألفي عام ونيف، ولا ريب أن الكاتبة تيه نينغ تتبوأ مكانة رفيعة داخل أروقة الدوائر والأوساط الأدبية في الصين في الوقت الحاضر. والبطاقة الشخصية لهذه الكاتبة تذكر أنها ولدت في العام ١٩٥٧ في بكين، وانداحت دائرة مشاعرها في العاصمة، وشهدت شوارعها وحواريها مراتع صباها بين الأهل والأتراب، وانبثقت من عائلة مثقفة، فأبوها رسام، وأمها أستاذة الموسيقى الصوتية، وتأثرت منذ نعومة أظافرها بالثقافة الصينية التقليدية في وسط هذا الجو المفعم بالفن، وتخرجت في المدرسة الإعدادية في العام ١٩٧٥، وبفضل مؤازرة أبيها تكن مشاعر الإخلاص وتنضم إلى الفرقة الإنتاجية في إحدى قرى مقاطعة خبى المتاخمة للعاصمة بكين، واستطاعت بجدارة واقتدار أن تصهر حلمها في بوتقة العصر بأسره من المثل العليا والحكمة، ومن أجل تحقيق هذا الحلم، جعلت الحياة الينبوع الذي لا ينضب للأدب، والحياة تكمن في البقاع المترامية الأطراف في الأرياف، وصارت في رحلتها الأدبية الميمونة وطريقها اللاحب والمبهج والأثير، مصاحبة أمل الدنيا، ودنيا الأمل.

أما البطاقة الفكرية والأدبية للكاتبة تيه نينغ فتذكر

أنها بدأت تنشر أعمالها في مبتكر شبابها وهي طالبة في المدرسة الإعدادية، وانضمت إلى رابطة «الشباب المثقفين». وتبرز للعيان التقاليد والحداثة، والسذاجة والبراءة، ومشاكل الحياة، والحضارة والهمجية، ومسيرة الحياة الاجتماعية وتناقضاتها، والحضارة الحديثة والحضارة البدائية. فهي كاتبة قصصية تمكنت أن تخطو بالقصة المعاصرة في الصين خطوة جريئة إلى الأمام. وفي بدء حياتها الأدبية تنأى بنفسها وقلمها عن أن توصف بأنها تنتمي إلى ما يطلق عليه «الأدب النسائي»، فلم تنحز البتة إلى النسوية أو الجنس الناعم، ولم يك ذلك جليا وواضحا في أعمالها، بل - كانت ولا تزال - لا تألو جهدا في تكريس قلمها من أجل تجسيد القواسم المشتركة بين البشر على سطح المعمورة، والدعوة إلى الوئام والانسجام والخير العام، فضلا عن صعوبات النفس الإنسانية وعذاباتها وويلاتها، والشك والتردد والارتياب داخل الإنسان.

ويقودنا ذلك إلى القول، إن كاتبتنا أدركت - منذ بواكير حياتها الأدبية - أن القصة هي أقرب فنون الأدب إلى الحياة، بل إنها الصورة المنتزعة من واقع المجتمع بغرض الإيغال في أعماق الحياة بغية فهمها أو اكتشاف النفس الإنسانية، فالقصة تؤثر في هذا الواقع المتغير أو على الأقل تحاول تغيير هذا الواقع، وهنا تكمن القيمة الكبرى للفن، لأن واقع المجتمع عبارة عن حياة الملايين، والقصة مأخوذة من واقع هذه الحياة، وهي الأكثر تعبيرا أو إدراكا لتغيير هذا الواقع الذي يتكون أساسا من حياة الملايين ولا تتغير حياتهم إلا بتغيير الحياة.

ولا غرو أن تقول كاتبتنا إن: «الأدب ربما لا يضطلع إطلاقا بمهمة محاكمة البشرية، ولا يقوم بإبراز قوة وسلطان الدولة. وإنما يقع على عاتقه - دائما وأبدا - مسؤولية فهم العالم والإنسانية، والاهتمام العميق بالفكر الإنساني. إن القوة السحرية للأدب تكمن في أننا يجب أن نتحلى بالمقدرة على التعبير بصورة مستمرة عن أفكارنا تجاه العالم من جديد، وتقصي الحقائق الجديدة في الحياة، كما ينبغي علينا أن نتسم بالجرأة على فحص الذات ومحاسبتها حتى تظفر روحنا بالتقدم والنهوض».

وتناولت أعمالها - في مرحلة المراهقة الأدبية - موضوعين بصورة رئيسة هما: وصف حياة الطفولة، والتعبير عن الطفولة البريئة وسذاجة الطفولة وطهارتها وعفتها كما جاء في قصة «فرح عظيم»، ووصف الحياة الواقعية والتنقيب عن حقائق الحياة، ووصف مآثر الشخصيات كما جاء في رواية «طريق صغير يؤدي إلى البستان»، ثم ما لبثت أن شهدت مرحلة الحصاد الأدبي والإبداع الأدبي بين العامين ١٩٨١-١٩٨٦، حيث كتبت مجموعة من الروايات القصيرة والمتنوعة وتتمتع بالمادة الأدبية الغزيرة، والموضوعات المتنوعة، والطرق الفنية المختلفة. ومن بينها الرواية القصيرة «آه، أنت الفتاة شيويه شاينغ» (١٩٨٦) التي وصفت بدقة وحيوية الحضارة الحديثة التي جلبها القطار لقرية «تاي أر» القابعة في أحضان الجبل وأحدث تغيرات في تلك القرية الجبلية الصغيرة النائية، كما جلب البهجة والغبطة لفتيات القرية

الجبلية اللواتي يتسمن بالفضول وحب الاستطلاع ويهرولن إلى المحطة لمشاهدة القطار الذي يبدد السكون الصامت في قريتهن، ويقمن بالمتاجرة مع ركابه والعاملين به، ومن بين تلك الفتيات، كانت الفتاة «شاينغ شيويه» الوحيدة في المدرسة الإعدادية في القرية. وتختلف عن سائر أترابها من فتيات القرية وتتحلى بالخجل والحياء، ولا تبدي إعجابها بالملبس والحلي والترف في الحضر، ولكن يستحوذ على إعجابها الحقيبة المدرسية الجلدية، والمقلمة الأوتوماتيكية، وقرض الشعر، وامتحان الطلاب بجامعة بكين، ومن أجل الحفاظ على كرامتها وعزة نفسها وتحقيق طموحاتها وتطلعاتها التي تشوبها السذاجة والعفوية، تصعد بجسارة على جسد القطار المتحرك، وفي داخله تقايض بأربعين بيضة مقابل الحصول على المقلمة الأوتوماتيكية التي تتوق إليها ليلا ونهارا. ويجسد ذلك تطلعات الجيل الجديد من الشباب في القرى وفي الأرياف إزاء الأخذ بأسباب الحضارة والمدنية الحديثة.

إن قيمة الفتاة «شيانغ شيويه» لا تكمن فقط في تطلعاتها وآمالها الطاهرة والنقية نحو الحضارة خارج قريتها الجبلية، بل لا تدخر وسعا في تغيير حياتها ومصيرها، وتتحلى بروح الإقدام والكفاح في الحياة، بل تبرز هذه القيمة بصورة جلية في أنها كانت إيذانا ببدء إعادة بناء الوعي الذاتي لدى الصينيين الذين خرجوا من قمائن ونير الثورة الثقافية الكبرى (١٩٦٦ - ١٩٧٦). كما تمثل التحول الحديث وهو أكثر ما تحتاج إليه الطبيعة التقليدية لدى الأمة الصينية، فالأضواء الساطعة

كانت تعجبها أيما إعجاب من مظاهر الحياة الحديثة في القطار وأهل الحضر والحياة الجديدة. أما المشاعر الهائجة كانت من نصيبها في اقتناء مقلمة وفي حياة جديدة، وعندما عادت إلى القرية كانت تنعم بفرحتين: فرحة أزجاها ذاك القطار، وفرحة أفاءها عليها هذا الإرهاص بتحقيق أملها أن تكون نداً لأترابها في المدرسة بالحضر. وخلاصة القول، أن الفتاة «شيانغ شيويه» ليست - إطلاقاً - قصة بعيدة، إنها تمثل في نهر الحياة الطويل لحظة قصيرة تعانق فيها النقاء والصفاء، وعلى أية حال، هذه اللحظة موجودة حتماً، ومرهونة بوجود البشرية، إنها الحياة التي يعتمد عليها.

وفي قصة «من يستطيع يجعلني خجولة؟!» تصف الكاتبة الملامح الخارجية الناجمة عن الشعور بالنقص وتتجلى في تبديل الملابس والتزين والتجميل. وفي عبارة أخرى، أن أبطال رواياتها في الريف يسعون إلى تحقيق مكانة متكافئة مع أهل الحضر، وذلك عندما وصفت الصبي الغرير الذي يرسل عبوات المياة المعدنية إلى الزوجة الثرية الجميلة الأنيقة، ويحاول محاكاة أهل الحضر في ارتداء الملابس واقتناء الأجهزة الحديثة، وجذب اهتمام وانتباه الزوجة، ويحاول إثبات ذاته على الرغم من أنه عامل أجير من الريف، لكنه يغشى المدينة ويحتك بأهل الحضر، ويحدوه الرجاء والأمل بأن تبديل ملابسه بصورة مستقرة يحقق تطلعاته وآماله الكبار، بل يأمل أيضا أن أهل الحضر يعاملونه كما يعاملون قاطني المدن وكأنه واحد منهم، الكاتبة وصفت هذه التفاصيل

بدقة متناهية، وغاصت في أعماق الشخصية وجسدت مشاعره الناجمة عن إحساسه وشعوره بمركب النقص الذي يلازمه مثل ظله. إن مثل تلك الشخصيات ترغب في تحقيق القيمة الذاتية، ولكن تخفق في تحقيق مآربها ورغائبها، بل تظل منبوذة تعاني الإقصاء والإبعاد من قبل أهل الحضر الذين يشمخون برؤوسهم ويظهرون مشاعر التفوق أمامهم، مما يجعلهم يستطيعون فقط الحياة على هامش المدينة.

ويمضي الوقت وتسيطر تيه نينغ على فنها القصصي وتتمكن منه، وتبدأ حبكات قصتها في التعقيد وتتداخل الحوادث والمواقف والشخصيات، ولكنها ظلت حريصة على أن يبقى هيكل كل قصة واقعيا يتركز على حدث حقيقي أو ملاحظة دقيقة أو تجربة واقعية اشتركت فيها أو حصلت على تقرير أو رواية عنها من شاهد عيان. وتعمق إبداعها الأدبي في الحياة بشكل أكبر بين العامين ١٩٨٣و ١٩٨٤، وجسدت الرواية المتوسطة «قميص أحمر بلا أزرار» التغيرات التي طرأت على مفاهيم وأسلوب الحياة، ويتسع نطاق رؤيتها وعطاؤها المفيض وتقديرها لمعايير الجمال كما تجسد في رواية «كومة من القمح».

* * *

يقول الكاتب المكسيكي الكبير كارلوس فوينتيس: «لا تكون الكاتبة جيدة إذا اكتفت بأن تعكس الأشياء أو تقلد الحياة فقط، لكن حين تتحدث حول ما لم يوجد بعد، أو ما هو موجود لكنه خفي أو ممنوع، عندئذ تصل إلى شيء أعظم

أهميــة»، نعــم، لقد أحــرزت كاتبتنا ما هو أعظـم وأبقى.. فهي مــن أعـلام القصــة الحديثــة، وصاحبــة روح مبدعــة حققـت وســجلت ما فاضت بــه الحياة الجديدة في الصــين من إثراء، وتؤكـد قصصهـا عنصـرا مهمـا فــي الحيـاة وهو الإنسـانية.. وتصور في كل موقف من مواقفها الغرامية ذلك الثمن الغالي الــذي تدفعــه لأنها صاحبة عقل وضمير وقـدرة على التخيل، وهــو أيضا ثمــن آدميتها.. فقــد كانت مهمتها تقشــير الحياة حتــى تصل إلى لبها وجوهرها، ثم تعرض علينا وتســألنا عن مغزاهــا.. فقــد احتضنت الخيـر وجعلت منــه عقيدتها حتى تعطــي الفرصة للإنســان أن ينمــي قواه وقدراته. وتســعى تيه نينغ إلى تثبيت أركان مقولتها بأن الخير موجود، ولكن الخير في هذا العصر ليس رخصة مرور فعالة، ويجابه الخير المصير المضحـك والســخرية، فقد ولــى زمانه.. وعلــى كل حال، بقايا الخير في حياة البشرية صعب أن تجده وقلما تراه.

ولا مندوحــة أن تكــرس تيه نينـغ قلمهــا وجهدها وجهادها من أجل اكتشــاف الخير، ورواياتها قلمــا تتناول موضوع الموت والفنــاء بصورة مباشــرة.. وندرك من هنا أنهــا كاتبة لا تعرف اليــأس والابتئــاس، ولــم تثبط همتهــا البتة، علــى الرغم من حالات آلامها وأحزانها وفقدان الأمل، ولكنها لم تعرف اليأس، ولــم يجتاحها التيار الجارف والموجة الهوجاء من الشــر التي تغلغلـت فــي أدب القرن العشــرين. ولا ســيما كتابــات الروائي النمســاوي فرانزكافــكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) الذي ظل طيلة حياته يحــاول البحث عــن القوة التي تتصدى للشــر ومحاربته، بيد

أنـه اضطر إلى الاعتراف على مضض بأنه لم يجد هذه القوة جـراء الطبيعة الطابعة للإنسـان من التعاسـة والشـر، ويرى أن الإنسـان يفتقـر إلـى القوة لطرد الشـرور مـن العالم، لأن الإنسـان في حد ذاته هو أسـاس الشـر في العالم، وهنا يكمن يأس وشقاء كافكا.

أمـا كاتبتنا الذواقة فلا ترغـب في أن تكون أعمالها بمنزلة نتاج لمواساة النفس وتعزيتها، كما ترغب عن الاقتداء بالروائي النمسـاوي كافكا وتتنـاول فـي مادتها الأدبية قصـص اليأس وفقدان الأمل، أو بالأحرى أنها لا تستطيع أن تعيش في جلباب كافـكا، وأعلنـت انتفاضة الـذات على الذات إذا صـح التعبير، وراحـت تبحـث عن أسـلوبها الخاص ورؤاها المميـزة.. وإذا كان «الشـر» الموضوع الفكري الأساسي والأهم الذي تناوله الكُتاب في القرن العشـرين بعـد أن لاذ «الخير» بالفـرار من أقلامهم وحروفهم، أو أن مداد أقلامهم جفت ونضب معينها من الخير وقتئـذ، فـإن كاتبتنـا حاولـت أن تنـأى بنفسـها عـن الكابوس الأدبـي في القرن العشـرين، وعن «الشـر» المقصـود به في هذا المقـام من المنظور الفلسـفي وهو «اليأس المظلـم»، «العجز عن العجز»، وليس «الشـر» المنصوص عليه في الأعراف القانونية، وأثبتت بجدارة أن الأمل الذي تتحدث عنه هو الأمل الحقيقي الواقعي. وتؤكد الخير الذي لم تدركه البشرية منذ ردح طويل: إنه «الخير» الذي تعرض للطرد من قبل الشـر واليأس بصورة كاملـة، إنـه «الخيـر» الـذي يتمكـن بجدارة مـن ذوبـان الثلج الجاثـم على القلـوب والنفوس بصورة جلـواء، ويلقي بظلاله

الوارفة من الدفء والحنو على الإنسانية بأسرها.

وبإلقاء نظرة عميقة ومتأنية على أعمال كاتبتنا، نجد أن رواياتها القصيرة والمتوسطة معظم أبطالها من الخيرين بسطاء السريرة، وليسوا الإنسان الكامل دون شائبة أو السوبرمان. ويتجلى ذلك بجلاء في الروايات: «تحت الشجرة»، و«مذكرات رئيس المقاطعة»، و«وجها لوجه»، و«الأبدية بعيدة جدا».

وتقدم الكاتبة في رائعتها الأدبية «الأبدية بعيدة جدا» الشخصية النسائية الفريدة، الفتاة «باي دا شنغ»، وتقول: «في الواقع، ما هي أوجه الاختلاف بينها وبين سائر الناس، إن الاختلاف الأكبر لديها أنها تحتضن - دائما وأبدا - مشاعر متدفقة ولّى زمانها، ويغص بها صدرها، فهي مفتونة بالرجل الذي تحبه، ولكن تفشل في حبها دائما. ومنذ نعومة أظافرها، هي طفلة مؤدبة، وملامحها مقبولة، وطباعها ودودة للغاية، وتقول عنها جدتها: إنها طفلة عطوفة وحنونة». وتسجل الكاتبة لنا تجاربها العاطفية في لمحات خاطفة أو في لوحات انطباعية سريعة لا تسلسل فيها ولا استمرار، ولكنها شذرات وأشتات من أفكار الكاتبة وانطباعاتها بطريقة سينمائية تظهر فيها الصورة أو «اللقطة» لبرهة ثم تختفي رويدا رويدا لتحل محلها تجربة عاطفية أخرى. والرابط الوحيد بين هذه اللقطات الخاطفة هو الكاتبة ذاتها التي تتحكم في حركة المد والجزر هذه أو حركة القبض والبسط. وعدسة الكاتبة المرهفة التي تعتبر مسؤولة عن إبراز العلاقات بين تجربة وأخرى

بوضعها الواحدة بجوار الأخرى. وتمضي الكاتبة في البحث عن سر الحياة الإنسانية وعن معنى التجربة الإنسانية، واستطاعت أن ترصد تغيرات المشاعر والعواطف لدى «باي دا شنغ» هذه، وتمسك بالخيط من أوله وتبدأ في عملية الغزل وتتحرك مع «المكوك» بين اللحمة والسداة حتى يتم لها نسيج القصة كلها.

وعندما قامت الكاتبة بإضفاء الطابع الخيري على شخصية الفتاة «باي دا شنغ»، لم تجعل الخير رخصة مرور فعالة للإنسان الخير، بل على العكس جعلتها - بسبب هذا القدر من الخير - تتعرض لكثير من المصاعب والأعباء النفسية، والانتكاسة في عواطفها ومشاعرها، فحظها مع الحب غير موات، ولا مطيع .. فولى مدبرا عنها هاربا منها، وأخذتها سنة من الحيرة حول من يملأ فراغها العاطفي. وفي نهاية المطاف، يركع أمامها شاب يحاول الإفادة من ظروفها، وقد كان تخلى عنها، إنه الشاب «قوى هونغ» وترفضه، ولكنها تفكر مليا، ربما لا يوجد هناك من يتقدم لها، وتتزوج من هذا «الإنسان الخير»، إنها «الطيبة الحنونة الودودة» التي ربما لا تصيبها العنوسة، ولكنها تخشى العنوسة.

ولا مراء أننا نحب في سويداء قلوبنا «الخير» المتراكم داخل مناحي النفس الإنسانية الذي تجسده الكاتبة، فضلا عن اليأس المشوب بالنوايا الحسنة والخيرية، وتستخدم «الخير» في قهر اليأس وفي التعبير عن المشاعر، إنه «الخير» الذي يتسم بالنزر اليسير من الإحساس باليأس حتى نستطيع

في النهاية التصدي ومقاومة اليأس الأكثر هولا، والأكثر حلكة، لأن «الخير» يتحول ويصبح صبرا، والصبر هو العدو الطبيعي لليأس. إن «الخير» هو القوة الكامنة في التعبير عن المشاعر والأخلاق، والأكثر أهمية، أن الكاتبة تنقب عن بقايا الخير الإنساني داخل حياة البشرية، وتجعل هذا الاستكشاف بمنزلة الفكر الملهم والأساسي في الأدب المعاصر.

وزبدة القول، أن تيه نينغ تدرك تماما أن البشرية في القرن العشرين تعرضت لسلسلة من الإهانات والعذابات، وتبخرت آمالها، وغربت شمس الإنسانية داخل «الإنسان»، وتبدد الوجود الإنساني وبات سرابا، ومع ذلك، لا تدخر وسعا في أن تجعل «الخير» الميزة الراسخة داخل شخوصها والذي لا ينضب معينه، مما دفع كتاباتها وتأليفها الأدبي إلى درجة كبيرة من الصعوبة لم تعرفها من قبل. والميزة كل الميزة، أنها تسعى سعيا حثيثا للبحث عن غطاء علبة بندورا[1] لتوصدها بإحكام شديد درءا للشر في أصقاع المعمورة.

د. عبدالعزيز حمدي
القاهرة - مارس ٢٠١٣

---

(١) بندورا: في التراث اليوناني هي امرأة أرسلها زيوس عقابا للجنس البشري بعد سرقة بروميثيوس للنار وأعطاها علبة (Pandora›s Box)، ولم يكد يفتحها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايا، فعمت البشر.



الأبدية بعيدة جدا

هـل قطنت في حـارات بكين؟ هل كنت طفلا تربى في أزقتها؟ هـل مازلـت تتذكـر تلـك الكوكبة مـن الأطفـال الإنـاث اللواتي يتسمن بالبهجة، والثرثرة، والسذاجة والبراءة؟

أنـا سـكنت في حارات بكين، وكنت طفلة فـي حواريها. وأتذكر دائما هؤلاء الأطفال الإناث اللواتي يشـعرن بالبهجة، ويثرثرن، ويتحلين بالسذاجة والبراءة. وأشعر دائما أنه إذا لم يوجد هؤلاء الأطفـال هـل يمكن أن نسـمي الحارة حارة، وهـل يمكن أيضا أن نسـمي بكـين مدينة بكـين؟ ومقولتي هذه تسـتثيرك ولا تشـعر بالغبطـة، وتقـول بالتأكيـد كل ما يجول في ذهنـك، وقل ما بدا لـك. أجـل، بكين فـي الوقـت الحاضر إذا لـم تكن كمـا كانت في عهدهـا الماضـي التليد، كأنها - مرة أخـرى - لا تكون متحفظة هكذا، ولا تستهويها شهرة ولا مغنم أيضا. وفي عبارة أخرى، إنها مثاليـة وودودة. وتعرف بكـين تماما احتضان الأحـزان، إنه العناق المدهـش، والعنـاق الحقيقـي والزائـف أيضا، ويعيش فـي حضنها العديـد والعديد مـن المغتربين. ولهجة بكين الفقيـرة، التي تتردد فـي جنبات الحواري وتشـوبها بعض التلائـع والتعتعة، لا تحظى بالترحـاب منـذ أمـد بعيـد. وثلـة الأطفـال الإنـاث السـابقين

اللواتـي يتحدثن مثل لهجـة بكين الفقيرة تظهر حينا وتختفي حينـا آخر في الحارات. وشـعرهن نظيف ولمـاع، ويرتدين الأزياء البسـيطة (ليسـت مزرية مسـكينة)، وملامحهـن رصينة متزنة. وسعة الأفق لديهن ليست كبيرة، مما يجعل المرء يشعر بأنهن قد يتعرضن للخداع في أي وقت. ومنذ عشرين عاما ونيفا، كل مرة أزور بكـين وأرى الصبايـا في أي مكان، أقر دائمـا أنهن كن هؤلاء الأطفـال الإناث اللواتي عشـن في الحارات فـي الماضي. وإذا كان هـؤلاء الأطفال مثل ورقة الشـجر، إذن، الحـارة هي العروق التي تتلوى كالأفعى بصورة مكثفة فوق هذه الورقة. وإذا فحصت ورقة الشـجر في ضوء الشمس، تكتشـف أنها متلألئة ونقية وصافية، لأن هـؤلاء الأطفـال الإناث يتخللن تلك العـروق، إنهن خلاصة هـذه المدينة، والحارات تحتضنهـن من أجل مدينة بكين، وجعلن جلد هذه المدينة الروحية لماعا، ووجهها نديا، ومفعمة بالمشـاعر الدافئـة الصادقـة، كمـا جعلوني أيضـا المتفرجـة المخلصة على مدينة بكين إلى الأبد، حتى لو انقضى مائة عام آخر.

وعندما غادرت بكين، كنت شـببت عن الطوق وأصبحت بالغة، وبعد أن سـكنت في المدينة (B) حيث العيـش باطمئنان والعمل بارتيـاح، كانـت لديّ فرصة للعودة إلى بكين كل سـنة، وهناك في هـذه المدينة أزور بعـض كتاب الأطفال وأبحث عـن بعض الكتب الشـيقة لدار الأطفال للنشـر التي أمتلكها. كما ألتقي بالأقارب والأهـل، ومـن بينهم بنـت خالتي الصغرى (باي دا شـنغ) الأكثر التقـاء بـي. وباي دا شـنغ تخبرني دائما ببعـض أمورها وتطلب منـي مسـاعدتها في اتخـاذ القـرار، ولكنها تطـرح فكرتي جانبا

دائمــا فــي نهايــة المطــاف. وتبــدو فــي بعــض المجــالات لا يمكن إصلاحها أو تقويمها، ولكننا نلتقي دائما، ومن جعلني أكون بنت خالتها الكبرى؟!

والآن في شهر يوليو، ركبت سيارة الأجرة بعد الظهر، ورذاذ المطر جــذاب ورائع خارج النافذة، واتفقت مع باي دا شــنغ على اللقاء فــي المتجــر الكبير «شــيدو» في شــارع وانغ فوجــين، وهنــاك ليس بعيــدا عن فندق «كايلون» الــذي تعمل فيه. وبعد أن تخرجت في الجامعة، تم توزيعها للعمل في هذا الفندق ذي النجوم الأربعة، وكانــت مســؤولة اتحاد العمــال، ثم عملت مديرة قســم المبيعات. وقلــت لهــا ذات مرة: أنــت محظوظة، أصبحت رئيســة بمجرد أن انتقلــت إلى هذا القســم. وأرســلت زفــرة وقالــت: محظوظة! كل الذيــن يعملون في قســم المبيعات هم مــدراء، والرئيس هو مدير قســم المبيعات. وفهمــت كلامها، ولكن الطباعة فــي صدر بطاقة الزيــارة الخاصــة بهــا تنطوي علــى تهويل: باي دا شــنغ – فندق كايلون – مديرة المبيعات.

وصلت ســيارة الأجرة إلى شــيكو (المدخل الغربي) في منطقة دينغ شي، وتتزاحم السيارات وتسد الطريق في الأمام. وفكرت أنه من الأفضل أن أنزل من السيارة هنا، فالمسافة إلى متجر «شيدو» ليســت بعيدة. ونزلت من الســيارة، والمطر يهطل، واكتشفت أنني أقــف أمــام مدخل حــارة وتطأ قدمي الســلم المؤلــف من درجتين حجريتــين لونهمــا أزرق، وصعــدت على امتداد الســلم إلى أعلى ورأيــت إفريــز الغرفــة المغطى بالقرميــد الرمادي القــديم. وكان يوجــد بــاب أســفل الإفريز أصــلا اكتســى الآن بالقرميــد الأزرق

وأصبح مثل إنسان أشاح بوجهه بعيدا عنك. وصعدت السلم بخطوات واسعة حتى وقفت أسفل الإفريز كأنني ألوذ به من المطر. وربما تجنب المطر ليس مهما إطلاقا، ولكنني أرغب فقط في الوقوف هنا قليلا. والوقوف فوق مثل ذلك السلم جعلني أكثر وضوحا وجلاء عن أي وقت آخر بأنني رجعت إلى بكين، إنه السلم الذي أقف عليه بقدمي وحوافه متهرئة ويحوي درجتين من الحجر الأزرق، والمدخل الغربي الذي أشاح بوجهه بعيدا عني ويقع خلفي، وكذلك الإفريز القديم لكنه ليس باليا، جعلني ذلك كله أتعرف إلى بكين، وأثبت أقدامي في بكين، وأعرف بوضوح كما في هذه اللحظة. حيث إن الشركات والمحلات الجديدة مثل: «شيدو»، و«تيان لون وانغ تشاو»، و«سوق دونغ آن»، و«لاوفويه» ... لم يكن في مقدورها أن تجعلني أشعر بأنني في بكين، كما أنها لا تضاهي السلم القديم المتواري في مدخل الحارة في إغرائي واستعادة ذاكرتي السريعة والواضحة مثل الإحساس بالبرد.

في الماضي، في أيام الصيف تلك قبل عشرين عاما ونيفا، أذهب دائما وبنت خالتي الصغرى باي دا شنغ - بعد الظهر - إلى دكان صغير في المدخل الجنوبي للحارة وفق تكليف جدتنا، ونحمل برادا ونشتري قازوزة مثلجة. وحارتنا اسمها «فوما» (زوج ابنة الإمبراطور)، ويوجد دكان البقال في مدخلها الشمالي يبيع الكعك، والمعلبات، وصلصة الصويا، والخل، واللحوم النيئة والمطبوخة، ومنتجات الصويا، ولحم البقر والغنم، وسمك السيف الطازج. وتباع الخضراوات خارج الدكان، ويضعها البائع فوق رفوف البضائع المرصوصة من ألواح البامبو ذات اللون الأصفر

الفاقع، ولا يخشى سرقتها في الليل حيث تبقى في مكانها على الرفوف. ولماذا تسرق؟ أمعقول أن يوجد أناس يتعجلون تناول الخضراوات في جوف الليل؟ وعندما يحتاجونها تفتح الدكاكين أبوابها عند انبلاج الصباح ويشترونها. كما يوجد دكان صغير وهو الذي أعتزم الحديث عنه في المدخل الجنوبي للحارة، وإذا كنا نذهب إلى محلات البقالة في المدخل الشمالي، نطلق عليها جميعا بلا استثناء التسمية المختصرة «المدخل الشمالي»، وبالمثل إذا أردنا الذهاب إلى نظيرتها في المدخل الجنوبي نقول التسمية المقتضبة «المدخل الجنوبي».

وفي الواقع «المدخل الجنوبي» هو فندق صغير، درجات السلم فيه عالية ومرتفعة حيث يحتوي على أربع أو خمس درجات، مما يمنح الشعور دائما بأنك تحتاج صعود مثل هذا السلم متعدد الدرجات لشراء الاحتياجات، ومن هنا فإن مشترياتك بالتأكيد تكون ثمينة وغالية. و«المدخل الجنوبي» لا يبيع صلصة الصويا، والخل، ولكن يبيع الخمور، ومثانة الخنزير المحشوة، وحبوب الفول السوداني، ولحم رأس الخنزير، بالإضافة إلى الآيس كريم، وألاسكا والقازوزة في الصيف. ويوجد داخل الفندق طاولتان مستديرتان صغيرتان يكسوهما غطاء بلاستيك طويل العمر هش مثل الرقاق النشوي الجاف، ويجلس أمامهما - دائما وأبدا - رجل أو رجلان متقدمان في السن يحتسيان الخمر مع حبوب الفول السوداني أو مثانة الخنزير المحشوة. وأشعر بأن حبي لأكل هذه المثانة، هذا النوع من اللحم بدأ من «المدخل الجنوبي».

هل تعرف متى تكون رائحة مثانة الخنزير المحشوة أكثر

فواحة؟ إنها تكون عندما يضعها البائع في المرقة ويحمل ساطورا بيده ويقطعها شرائح. إن الاحتكاك بين السكين الحادة وهذه المثانة يجعلها تنفث رائحتها العطرة وتفوح في جميع أرجاء الفندق. في ذلك الحين، أقف أمام البسطة وأستنشق بعمق هذه الرائحة، وأصدق تماما أن رائحة ذلك اللحم هي الأكثر جذبا في العالم. ولا أفيق من هذه النشوة والرائحة اللذيذة إلا عندما يسألنا البائع ماذا تشترون؟ «أعطنا قازوزة»، كانت هذه المقدمة التي يتفوه بها الأطفال عند الشراء في تلك السنين، ولا نقول: «أنا أريد شراء ...»، بل نقول: «أعطنا ...»، «أعطنا قازوزة»، «مثلجة أم باردة؟»، أعطنا مثلجة، قازوزة الشمعية الحمراء[٢] المثلجة». أقول ذلك أنا وياي دا شنغ معا، ثم نعطيه البراد الخاص بنا. نعود إلى تركيز الذهن والانتباه انطلاقا من الرائحة الفواحة لمثانة الخنزير المحشوة، ومقارنة هذه اللحظة برائحة هذه المثانة، يبدو لي أنني أكثر شوقا وتلهفا لشرب قازوزة الشمعية الحمراء المثلجة الحلوة اللذيذة. وتوجد خزانة تبريد بيضاء بجوار بسطة تقطيع مثانة الخنزير، إنها خزانة تغص بالبرودة حقا، وفي اللحظة التي يفتح فيها البائع غطاء خزانة التبريد، نهرول إلى مقدمتها في التو، آه! ينبعث الهواء المبرد مثل كرات الدخان الأبيض ويصفع وجوهنا مثل قبضة اليد ونشعر بألم لا يضاهى. خزانة التبريد تحتوي على الكثير من قطع الثلج، وزجاجات القازوزة من الشمعية الحمراء تندس وسط كومة الثلج تتهاوى تارة، وتتمايل تارة أخرى. البائع يملأ البراد بالقازوزة،

(٢) شجرة (أو شجيرة) لها زعارير عطرية مثل الغار أو الآس الشمعي [المترجم].

وأغادر مع باي دا شنغ الفندق الصغير، ونزلنا من سلم الفندق، ذلك السلم المؤلف من درجات حجرية زرقاء، ثم فتحنا غطاء البراد بسرعة ولهفة. وفي العادة أرتشف أنا - أولا - الجرعة الأولى. وعلى كل حال، أنا بنت خالة باي دا شنغ الكبرى. وتكتشف فيما بعد أن باي هذه الفتاة تبدو تقريبا أنها ترفض إظهار التواضع إزاء الجميع، سواء كان كبير أسرتها أو حتى بنت خالتها الكبرى. ومن ثم، شربت أولا بلا تكلف، ولا أتذكر تماما كيف تدفقت قازوزة الشمعية الحمراء المثلجة إلى فمي، وتدحرجت على لساني، وانزلقت إلى المريء وتخللت عظامي. ولكن أتذكر فقط أن هذه القازوزة جعلت فروة رأسي تقشعر بغتة، وعشرة آلاف إبرة توخز فجأة صدغي، والمحجر أسفل العينين ينثر موجة حرارة في مقابل البرودة، وأشعر بالآلام. آه، إنها البرودة، إنه الثلج. وعرف الناس البرودة والثلاجة في العصور التي لم تشهد الثلاجة، فالبرودة هي فقدان الشيء وتشبه برودة وخز الإبرة، باي دا شنغ متلهفة وتشرب على غرة حتى ترتوي، ورأيتها ترتجف من البرد، وذراعها المكتنزة تظهر موجة قشعريرة. تتحدث معي وهي تكاد لا تلتقط أنفاسها، ويبدو أنها تبولت قليلا! أضحك بصوت عال وآخذ البراد من يدها، وشربت حتى ملأت فمي مرة أخرى، وآلاف الإبر توخز صدغي، وأشعر بالألم الشديد في محجر العين، وتنهض روحي فورا. تميل رأسي صوب باي دا شنغ التي تقتفي خطواتي، ونعدو بخطوات وئيدة في الحارة التي يلفها السكون المطبق. والقطة الصفراء فوق سقف الغرفة تستيقظ على وقع أقدامنا، إنها

القطـة (نيـو نيو) في الدار الرباعية الشـرقية رقم (٩)، وتتنقل فوق الأسطح بحثا عن القط الذكر (شياو شونغ) في دارنا، ونهرول على الأرض، ونيو نيو فوق الأسطح تلاحقنا. يا نيونيو، هل شربت قـازوزة مثلجة؟ أوه، أنت أيضا لا تشـربينها طول حياتك. ونهرول وندلف إلى باب دارنا في طرفة عين. آه، إنها البرودة، إنه الثلج.

باي دا شـنغ لم تجأر بالشـكوى قط في الطريق لأنني شربت قـازوزة أكثـر منها، ولمـاذا أنا لا أعرف التسـاهل والتنازل لها منذ زمـن بعيـد؟ وأتذكـر أيضـا ذات مـرة كنا نسـتعد لمشـاهدة فيلم «سيهانوك يزور الصين». وأريد أنا وباي غسل رؤوسنا، والماء يغلي، وأندفع أنا أولا وأغسل شعري بمعجون غسيل الشعر. وهذا النوع من المعجون يشبه صفار البيض من اللون إلى الشكل، وله رائحة الليمـون، وثمـن الكيـس ثمانية «فن»[٣]، وتسـمرت قدمـاي أمام حوض غسـيل الوجه، وأشـطف شـعري مرارا وتكـرارا ولا ينتهي الشـطف، وعندمـا جـاء دور باي دا شـنغ كان الفيلم على وشـك العرض. وجدتنا تسـتعجلها، وانتهيت من غسل شعري وأتظاهر بالجد وأسـتعجلها أيضا، كأن غسل شعرها يعد عملا يفتقر إلى المنطق أصلا. وأدى ذلك إلى أنها لم تشطف شعرها جيدا، وذهبنا معا لمشـاهدة الفيلم. ومشـيت وراءها أرى بوضوح خصلة شعرها في مؤخرة رأسـها ومعلق فيها قطعة من معجون غسـيل الشـعر صفـار البيـض في حجم حبة فول الصويا. وهي لا تعرف شـيئا، وتهز رأسـها على طول الطريق أملا في أن الريح تجفف شـعرها بسرعة بعض الشيء. وأدرك في مناحي نفسي أن قطعة معجون

---

(٣) فن (Fen): وحدة نقدية من العملة الصينية تساوي ١/١٠٠ من اليوان الصيني أو ١/١٠ من الجياو [المترجم].

غسيل الشعر في مؤخرة رأس باي تعد خطئي، فمنذ عشرين عاما ونيفا أشعر بأن قطعة المعجون هذه تلتصق دائما بمؤخرة رأسها. أرغب كثيرا في أن أبلغها هذا الأمر الذي مضى عليه فترة طويلة. ولكن باي دا شنغ طباعها على هذا النحو، تصر على أنها لا تعي هذا الأمر، وماذا يكون في جعبتك للاعتذار لها، فضلا عن أنها تكدر صفو الجو الذي تعتذر فيه. ومن ثم، أنت من الأفضل تلتزم الصمت، واجعلها قابعة في هذه الحال.

تدور هذه الفكرة في ذهني وأقف في حارة المدخل الغربي (شيكو) في سون دينغ (المصباح)، أقف أسفل الإفريز المتهالك. وأفكر في القازوزة المثلجة، ومعجون غسيل الشعر الذي يشبه صفار البيض، حتى توقف المطر رويدا رويدا، ويجب عليّ أيضا أن أتوقف وأتجه إلى المتجر الكبير «شيدو».

وانتظرت باي دا شنغ في المقهى بالطابق الثاني في المتجر الكبير «شيدو»، وأحب مقهى «شيدو». ومقاعد المقهى قبالة النوافذ والزجاج الشفاف الممتد إلى سطح الأرض يجعلانك كأنما تحلق في الفضاء، ويراودك الشعور بالفوقية الزائف في طرفة عين. كما تبدو أمامك آفاق واسعة يسبح فيها النظر، ويمكن أن ترفع ذقنك وتنظر بعيدا حيث الشمس الغاربة تبعث ضوءها على البناية التي تعيش في كنف الواقع، ويتألف من ستائر الجدران الزجاجية والجرانيت. كما يمكنك أن تخفض عينك وترى خارج النافذة سيلا من البشر يتدفقون بهدوء أسفل قدمك، حيث يدخلون ويخرجون من «شيدو».

والآن مازال الوقت مبكرا عن الموعد، ولديّ وقت كاف أجلس

هنا في هدوء وأناة. وبعد أن شربت القهوة، أستطيع أيضا التجول في قسم الأزياء الحريمي في الطابق الثامن، وقسم الأدوات اليومية المنزلية في الطابق الرابع، وأحب – على وجه الخصوص – المناشف ومناشف الحمام من كافة الألوان والأشكال والرخام، وينتابني دائما شعور بأنني لا أستطيع الفكاك منه عندما أقف أمام الأشياء المادية فترة قصيرة. وطلبت سلطانية كبيرة من «القهوة الإسباني»، وهي عبارة عن الفنجان الخزفي الكبير السميك جدا عندما تحمله يبدو أنه يشبع رغباتك أكثر من «الكابتشينو» وغيره من الأشربة الأخرى. أحتسي «القهوة الإسباني» وسيان عندي أرى أو لا أرى الذين على مقربة مني ويتجولون في «شيدو». وتذكرت أن باي دا شنغ أخبرتني أنها عندما تنظر إلى الأشياء تحب أن ترى جوانبها مثل: البناية، والدراجة، وزوج أحذية، والمنبه، وطبعا يشمل ذلك الرجل والمرأة. وعادة باي دا شنغ هذه تجعلني أضحك من أعماقي، لأن ذلك جعلها تبدو مختلفة عن الناس. وفي الواقع، ما هي أوجه الاختلاف بينها وبين الناس، أن الاختلاف الأكبر لديها أنها تحتضن مشاعر متدفقة ولى زمانها ويغص بها صدري، فهي مفتونة بالرجل الذي تحبه، ولكن تفشل في حبها دائما. ومنذ نعومة أظافرها، هي طفلة مؤدبة وملامحها مقبولة، وطباعها ودودة للغاية، وتقول عنها جدتها «جاو» القاطنة في الدار الرباعية الشرقية رقم «٩»، تقول إنها طفلة عطوفة وتتحلى بالخير.

(١)

فـــي مطلع حقبة الســبعينيات من القـــرن الماضي، عندما كانت بـــاي دا شـــنغ في الســـابعة أو الثامنة من عمرهـــا، كان العجائز في الحارة يقيمونها ويصفونها بأنها «عطوفة وخيرة». وفي الواقع، أن جملة «في مطلع حقبة السبعينيات» غريبة وتحوم حولها الشبهات قليـــلا، إنهـــا جملة مبتذلة وتفـــوح منها رائحة الأســـقف الصفراء التي تسربت إليها مياه الأمطار وصندوق خشب الصندل القديم. فضلا عن أنها جملة ليست من الملائم انتشارها على الملأ، ولا تثير داخلـــي الكثير من قوة الإحســـاس والتأثر، ولا تشـــبه تماما ســـائر الجمـــل والعبـــارات الأخرى التي تمنحني الانطبـــاع العميق. وذات مـــرة، قمنـــا بزيارة جدتنا جاو في بيتها، وقـــرأت مذكرات حفيدتها قليلـــة الكلام الطالبة في المدرســـة الإعدادية. كانـــت تضع مذكراتها - يومذاك - فوق منضدة الشاي السوداء المقوسة كأنما ترحب بالمرء أن يقرأها. وكتبت في مذكراتها هذه العبارة: «على الرغم من أنني أنبثـــق مـــن عائلة ليســـت طيبة، ولكـــن إرادتي الثوريـــة لا يمكن أن تهمـــد...»، أجـــل، إن كلمة «تهمد» زلزلت كيانـــي، وجزمت أنها كلمة غريبة وغير عادية في الوقت الذي كنت فيه مازلت لا أفهم معناها تمامـــا.. الحفيـــدة لا تتحلى بالمعرفـــة الغزيرة، فكيف اســـتطاعت

استخدام مثل هذه الكلمة في مذكراتها.. وعلى هذا النحو، قدرت هذه الكلمة تقديرا جعلني لا أتجاسر وأسأل الراشدين عن مغزاها الكامن. ودفنت هذه الكلمة في سويداء قلبي أملا أن يساعدني الزمن على الاقتراب منها وفهمها. وباي دا شنغ الحنونة والعطوفة، جعلتها تسير على درب الخير والعطف والمروءة.

وتتمتع باي دا شنغ بالحنان والعطف حقا. فعندما كانت في الفرقة الأولى بالمدرسة الابتدائية، تحمل على ظهرها الجدة جاو التي سقطت في دورة المياه العامة وتعود بها إلى البيت (نقول بدقة تسندها بذراعها). وفي الفرقة الثانية، تحملت مسؤولية إلقاء بول وبراز الجدة كل يوم. وجدتنا لا تستطيع أن تجلس على حفرة القرفصاء في دورة المياه، وتتغوط في الغرفة يوميا. وأبواي ليسا في بكين وقتئذ، ونحن والجدة يعتمد كل منا على الآخر في الحياة. وعندما كانت باي دا شنغ في الفرقة الثالثة بالمدرسة الابتدائية، كانت دور الخيالة في الكثير من المدن الصينية تعرض الفيلم الكوري «فتاة تبيع الزهور»، الذي جعل كل دار الخيالة تبكي بكاء صامتا. كما أجهشت بالبكاء أنا وباي دا شنغ عند مشاهدة الفيلم، ولكنني لم أبك مثلها بتركيز وانهماك. وذلك لأن الرجل الذي يجلس في الصف أمامي كان يبكي تارة، وتارة أخرى يستجمع قوة ظهره في ألم ويضرب فجأة ظهر الكرسي، ويبدو منظره كأنه أصابه مس من الجنون، وأحدث جلبة صاخبة، ولكن لم يجرأ أحد بالشكوى لأن الجميع منهمكون في البكاء. وذلك الرجل الجالس على يساري يحملق في الشاشة الفضية وأجفانه ترف، ولا يكفكف دموعه مهما انسالت، ولا يمسح مخاط

أنفه النقي الذي يتدلى ويبلغ طوله ثلث متر.. وكانت باي دا شنغ تجلس على يميني، وفيما يبدو أن البكاء جلب لها حالة من الاحتياج، وراحت تتجشأ بقوة. واكتشفت من بداية عرض هذا الفيلم، أن بنت خالتي الصغرى لديها نقيصة حب التجشؤ. وإذا ركزت انتباهك على سماع صوت تجشؤها، تجده يشبه دائما صوت الرجل العاطل المتسكع، لا سيما في فصل الشتاء بعد أن تأكل الفجل الزراعي والذي نسميه «جمال القلب»، فإنها تتجشأ مرات عديدة بصوت خشن ضخم، ومثير للاشمئزاز وتشعر بالارتياح أيضا، وتشبيهها بـ «الرجل» يجعلني أشعر بالحزن، لأن باي دا شنغ ليست رجلا، كما أنها ليست عاطلة ومتسكعة. ولكن، بعد عرض هذا الفيلم، بدأ زملاء باي دا شنغ في المدرسة يسمونها «باي مالك الأرض» وذلك لأن اسمها «باي» كان أيضا اسما لمالك الأرض الشرس في فيلم «فتاة تبيع الزهور». وفي بعض الأحايين، هناك بعض الطلاب في الحارة عند رؤيتها يقولون بصوت عال عن قصد: «جاء باي مالك الأرض، حضر باي مالك الأرض!».

وهذا اللقب أهان وحطّ من قدر باي دا شنغ. ويبدو أن هذا الشعور من الإهانة كان بمنزلة الضغط والانهيار المعنوي داخلها. ويتجول في الحارة دائما بعض الأشخاص البالغين المتشائمين، إنهم بمنزلة «عناصر من أربعة أنواع» تحت المراقبة، ينظفون الجدران، ويكنسون الشوارع، ويحنون ظهورهم وينظفون المراحيض. وكانت باي دا شنغ تتعمد في كل مرة ترى فيها هؤلاء الأشخاص في الحارة - منذ أن شاهدت فيلم «فتاة تبيع الزهور» - أن تمشي شامخة الرأس مرفوعة الصدر، ولسان حالها

يقول للجميع: أنا لست بـاي مالك الأرض، أنا أختلف عن ملاك الأراضـي! كمـا كانـت تسـألني دائمـا: آي، تكلمـي، بالإضافة إلى التشابه في الاسم باي مالك الأرض، هل هناك أوجه تشابه أخرى بيني وبين هؤلاء الملاك؟ إن باي دا شـنغ لا تشـبه ملاك الأراضي مطلقا، ولكنها أصبحت شخصية رائعة انطلاقا من عدم اضطلاع الآخرين بالبحث عن شـبيه لها، مثل شـخصية «هواني» في فيلم «فتاة تبيع الزهور»، تلك الشـابة الجميلة طيبة القلب. وأنا واثقة بـأن هذا الفيلـم جعل كثرة كاثـرة من المتفرجات الشـابات يتولد لديهن خيال، يتخيلن أنفسهن يشبهن هواني.. وهنا يكمن السعي وراء القلب الطيب والمروءة، فضلا عن التطلع إلى أن يصبحن من الحسناوات بشـغف. وعندما انتهيت من مشاهدة الفيلم الألباني «المـوت ولا الاستسـلام»، تخيلت أن ملامحي تشـبه تماما المحاربة الثائـرة فـي الفيلـم وتدعـى «ميـلا» وتؤثر المـوت ولا الاستسـلام، والدليـل الوحيد لديّ أنـه عندما اعتقلت كانـت ترتدي ثيابا من ذات المربعـات الصغيـرة، وأنا أيضا عندي ثوب لونه أزرق في أبيض وبـه مربعات صغيرة، وأتحيل أنني «ميلا»، وأتوق بشـغف أن يوجد بين زملائي في الدراسة من يقف ويقول إن ملامحي تشبه «ميلا». وفـي تلك الأيام، كنـت أرتدي يوميا الملابس ذات المربعات الصغيرة وتنتشـي نفسـي غـرورا بصـورة مصطنعـة. كمـا أتذكـر جملة في كلام الممثـل جـاءت في ذلك الفيلم عندما كان الضابط «ناسـوي» يسـتجوب القائـدة «ميـلا»، وهي رئيسـة قوات العصابـات، وتوجد شـامة كبيـرة سـوداء بجـوار شـفتها، وأعطاها كـوب مـاء، ولكنها رفضته وقالت وهي تضحك ببرود: «شكرا، أفهم إنسانية الفاشية!»،

أشعر بأنها رائعة حقا في كلام الممثل، إنها جملة شامخة وتنضوي تحتها آلاف الجمل، وبدأت تعلم الضحك ببرود وفتور قبالة المرآة، وكنت دائما أقوم بإغراء باي دا شنغ بأن تتجاوب معي وأطلب منها أن تصب لي كوب ماء، وعندما تحمله وتأتي به أمامي، أضحك ببرود وأقول: «شكرا، أفهم إنسانية الفاشية!».

تضحك باي دا شنغ بصوت مكتوم، وتقول تعليقا على تصرفي: «رائعة في تقليد ضحكة ميلا»، وتبدي إعجابها بتمثيلي، ولم تصبح «فاشية» إطلاقا، وتصب جام غضبها عليّ لأنها لا ترغب في ذلك، على الرغم من أنها تحمل فوق رأسها «اللقب البغيض» وهو «باي مالك الأرض». ويبدو أنها تتحلى بالشعور الفطري من الطاعة والانصياع نحوي، حتى في اللحظة التي اعتبرتها «فاشية» لا تنقلب فجأة وتصبح خصما لي. والفرق ليس كبيرا بين «الفاشية»، و«باي مالك الأرض». ولكن باي دا شنغ لا تثير حافظتي. ومن أجل ذلك كنت دائما أستغرق في التأمل والتفكير العميق، نظرا إلى أن الطالب أطلق عليها تسمية «باي مالك الأرض» وشعرت حقا بأنها تصبح من «ملاك الأراضي» مع تقادم الزمن، وهل من المعقول أن مالك الأرض لا يجوز أن يطيع الشعب؟ وكنت أنا وقتئذ «شعب» باي دا شنغ. وبالإضافة إلى ذلك، أن ملامحي أجمل منها، ولست غبية مثلها على هذا النحو. وكانت الجدة تسبها دائما بأنها غبية حيث إنها لا تجيد تقشير الثوم جيدا، بل على العكس يتسرب عصير الثوم إلى شقوق أظافرها، وتبكي بحرقة، وترفع بشكل واضح مضرب الذباب، ولكنها - دائما وأبدا - لا تجيد أيضا ضرب الذباب حتى يموت. كما أنها أضاعت

النقـود وكوبـون الزيـت، وفي ذلك الحين، كان شـراء زيـت الطعام يسـتند إلى كوبون الزيت، ويحصل كل فرد على مائتين وخمسـين جرامـا من زيت الفول السـوداني كل شـهر. وفقـدان كوبون الزيت يعني شراء الزيت بالسعر المتفق عليه، ونصف كيلو جرام من زيت الفول السـوداني بهذا السـعر يسـاوي يوانا وخمسـة ماوات، أغلى بمقدار الضعف عن سعر التكافؤ. وذات مرة، دلفت باي دا شنغ إلى المدخل الشـمالي لشـراء زيت فول سـوداني، بيد أنها فقدت كوبون الزيت والنقود قبل دخول باب الدكان. ولعنتها الجدة بأنها شاردة اللب طوال اليوم، وقالت لها: «أنت غبية، ويتعين عليك تعلم كيفية تركيز الذهن بشـكل أكبر، بل إن ذهنك أكثر اضطرابا وارتباكا من الآخرين»!

وفـي رأيـي أن شـرود الذهن والتركيز هما الشـيء نفسـه حقا. ولماذا باي دا شـنغ فقدت النقود وكوبون الزيت؟ وذلك لأن الشـاب «تشـياو» حضر وأقام في بيت الجدة جاو الكائن في الدار الرباعية الشـرقية رقـم «٩». وذهـن بـاي دا شـنغ في تلـك الفتـرة تركز في الاهتمام بالشـاب تشـياو، ومن ثم أصبحت شـاردة اللب. والشـاب تشـياو هـو ابن شـقيق الجـدة جـاو، وهو ممثـل راقص فـي فرقة الرقـص والغنـاء خارج المقاطعة، ويمثل دور الشـاب «داتشـون» في المسرحية الراقصة «فتاة الشعر الأبيض» التي تؤديها هذه الفرقة. وفـي رقبتـه ورم صغير، وجـاء إلى بكين مـن أجل إجـراء العملية ويقطن في بيت الجدة جاو. و«داتشـون» هو الشاب الجميل الأنيق الذي لم تعرفه الحارة من قبل، وعمره يقترب من العشـرين عاما، وشـعره أجعـد في رأس أعوج بصـورة طبيعية، وحاجباه سـوداوان،

وعيناه كبيرتان، وشفتاه غليظتان، وقوامه هزيل معروق ولا يبدو ضعيفا، ويرتدي الزي العسكري بلا شارة الطوق، ويضع شارة على القبعة، وهذا الزي يعد «نموذجا للفرقة» حتى يتحلى بالمؤهلات لتوزيع الملابس. ولا يزرر الزرار الأول من البزة العسكرية، ويظهر قميصه من فتحة الرقبة لونه أبيض باهر ويغص برائحة فواحة تجعل الناس يتوددون إليه. ومن ثم، تكون الفتاة شديدة الإعجاب به بالتأكيد. وعلى كل حال، كنا نحن الأطفال الإناث اللواتي لا يمكن أن نسميهن سيدات هن أكثر الناس الذين يلتقون به. وأين يذهب السيدات إذ ذاك؟ إنهن لسن مثلنا حقا، حيث يستطعن فقط الاحتشاد في فناء الجدة جاو طوال اليوم، ويلتففن حول «داتشون» ويحدثن جلبة عارمة. وكان «داتشون» يتحلى بالصبر الكافي نحونا، ويعلمنا الرقص، وتمثيل أوبرا «فتاة الشعر الأبيض» التي فيها «داتشون» ينقذ «شي أر» ويخرجها من كهف الجبل، ويضع طاولة مربعة في منتصف الفناء، ويسند بجوار المنضدة مصطبة صغيرة وقصيرة، يضع بجوارها مصطبة صغيرة أخرى أقصر من الأولى، وعلى هذا النحو يكون السلم يتألف من ثلاث درجات داخل الكهف.

وتشهد الذروة الفنية لهذه الأوبرا عندما تسحب يد داتشون الفتاة شي أر ويغريها أن تصعد هذا السلم في خطوات تعلو ارتفاعا حتى تنتهي من صعوده وتدلف إلى «الكهف»، ويجعلها ترى ضوء الشمس داخله، وتعجب بالكهف وتحبه، وداتشون وشي أر صدرهما متشامخ، ويركل كل منهما الآخر بقدمه في تشكيل

فني جميل رائع. إنه تصميم يهز المشاعر، ومشهد مثير، إنه الحلم الجميل في سويداء قلوبنا. وتتوق كثرة كاثرة من الأطفال الإناث في الحارة إلى تمثيل دور «شي أر» لمرة واحدة في هذا المشهد. وضوء الشمس في الكهف ليس مهما بالنسبة إلينا، بل المهم أن نستقبل ذلك الضوء مع «داتشون» ذي الشعر الأجعد معا، ونسحب يده. جلسنا في قلق مضطربين على المصطبة الصغيرة التي تتوسد صحن الفناء ننتظر اللحظة التي يحين فيها دورنا، يحسد كل منا الآخر، ونتبادل التشجيع أيضا. وكان الشاب «داتشون» لا يميل ولا ينحاز لأحد دون الآخر، وطلب منا أن كل طفلة تمثل دور «شي أر» على الأقل. وكانت باي دا شنغ الوحيدة.. كانت الوحيدة التي رفضت التعاون مع «داتشون» على الرغم من أنها ذهبت إلى الدار الرباعية الشرقية رقم «٩» أكثر من أي طفلة أخرى.

وكادت باي دا شنغ – في مرات عديدة –تستشاط غضبا من الجدة لأنها لا تستطيع أن تصل إلى هذه الدار الرباعية بسرعة بقدر المستطاع بعد العشاء كل يوم. وذلك لأن هذا الميقات يتزامن يوميا مع تغوط الجدة. ولا تستطيع باي دا شنغ مغادرة البيت إذ يجب عليها التخلص من براز وبول الجدة في الخارج. وفي تلك الأثناء، يكون تم الانتهاء من «ديكور» أوبرا «فتاة الشعر الأبيض» في هذه الدار. آه، إنها لحظة تعذيب الإنسان حقا! والجدة تتبرز بهدوء وبطء هكذا، وتجلس هناك وتدخن، وأحيانا تلبس نظارة الإبصار الشيخوخي وتقرأ الكتاب الضخم من قياس «٣٢» المعنون بـ «سجل خطب الزعيم ماو». ويجعل ذلك الجدة تظهر بأنها قاسية القلب، ولماذا لا تفهم – ولو قليلا – ما يعتمل في صدر

باي دا شنغ؟ وأنا أقف جانبا ويفرح قلبي أن التخلص من براز وبول الجدة ليس مهمتي تارة، وأتعاطف مع ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ تارة أخرى. وكلما قلت لباي دا شنغ: «أذهب أنا أولا على كل حال»، بدأت باي دا شنغ التوسل إلى الجدة والتذلل لها، ولكنها شجاعة أيضا وتقول: «هل انتهيت من التبرز؟»، أتستطيعين التبرز بسرعة بعض الشيء؟ صوت باي دا شنغ ينفذ إلى الحجرة التي تفصلها ستارة الباب. ولكن طلبها الملح من جدتها يجلب نتائج عكسية على وجه الخصوص، وذلك لأنها الإنسان باي دا شنغ، ويجب أن تكون حنونة وعطوفة. وبالتأكيد ترد عليها الجدة القابعة وراء الستارة، وتقول ماذا أصاب هذه الطفلة اليوم؟ أيوجد من يتحدث مع العجوز بهذه الطريقة؟ ولماذا تربيتك جعلتك متحفظة هكذا؟ لا يجوز أن يتوقف التبرز.

وتضطر باي دا شنغ أن تجلس خارج الحجرة وتنتظر الجدة. الجدة تضاعف زمن التبرز عقابا لباي دا شنغ. وفي ذلك الحين، أكون هرولت مثل خيط الدخان ودخلت إلى الدار الرباعية رقم «٩» منذ فترة طويلة. ويعتصر داخلي ألما لأن قوتي خائرة ولا أستطيع الدفاع عن الحق، كما تتوق نفسي إلى حضور باي دا شنغ مبكرا. وتحضر باي دا شنغ غالبا، وتجلس – دائما وأبدا – في ركن لا يجذب الأنظار، على الرغم من أنها تتلهف بشدة لأن يركز «داتشون» نظراته عليها. وأنا الوحيدة التي تعرف شهوة الشوق والتلهف داخلها. وذات يوم أخبرتني أن الشاب شياو غير مدرج في سجل الأسرة في مدينة بكين، ويجب أن يعود أدراجه إلى بيته بعد العملية، أليس كذلك؟ وقلت: آه، أمر مؤسف

للغايـة. وتجمدت تعابير وجهها وقتئذ، وحملقت بعينين باهتتين وفاترتـين نحـوي، بيد أنها تبدو لا تراني تماما، وتحسسـت يدها وقلت: آي، آي، ماذا أصابك؟ كانت يداها باردتين على غير المتوقع، مما جعلني أتذكر قازوزة الشـمعية الحمـراء المثلجة، كانت يدها تبدو كأنها انتُشلت توا من خزانة التبريد. كانت في العاشرة من عمرهـا فـي ذاك العام، وحرارة يدها ليسـت مثل مـن في عمرها حقا، إنها حماسـة لا يمكن أن تعبر عنهـا النفس، وتمنيات حارة لا يمكن أن يصفها اللسان. وفي هذه اللحظة، كان يحدوني الأمل أن أجلس في ركن باي دا شـنغ، ثم فكرت بصورة فجائية أن أجعل «داتشـون» يركز اهتمامه على ابنة خالتـي الصغرى. وقلت بصوت عال: «أيها الشـاب تشـياو، باي دا شـنغ لم تمثل دور «شـي أر» بعد، وتتوق إلى تمثيل دورها مرة واحدة! تشـياو صاحب الشعر الأجعد يؤدي دور «داتشـون»، ويتقدم نحو باي دا شـنغ. كان تشياو حميما ومتفائـلا هكـذا، ويمد يـده إلى باي دا شـنغ ويدعوهـا للتمثيل. ولكنهـا ترفض مـرة بعد أخـرى، وتغمغم بصـوت منخفض: «كلا، أنـا لا أصلح للتمثيـل، ولا أجيده، ولا أعرفـه، ولا أكون ممثلة، أنا لسـت كفؤا للتمثيـل...»، تتفوه بتلك الكلمات في وجه الشـخص الـودود، وتظهر آنذاك أسـلوبا غير ودي أصاب الجميع بالدهشـة. تطأطئ رأسـها، وتصر على أسـنانها، وتشبك يداها خلف ظهرها. ورفضهـا جعلنـي أشـعر بما لم يكن في الحسـبان، ولـم أفهم ماذا أصابهـا، ولماذا ترفض بقـوة اللحظة التي كانـت تترقبها منذ ردح طويل. وأنا الأكثر معرفة بتطلعاتها وآمالها لأنني تحسست يدها البـاردة. وفكـرت أنهـا تشـعر بالحياء بـكل تأكيد، ثـم قلت بصوت

مرتفع ينطوي على التشجيع: أنت تستطيعين التمثيل، أنت كفء للتمثيل، ويردد معي ذلك أطفال آخرون. كأنما نشجع معا باي دا شنغ الضعيفة المتخاذلة، وأيضا نشفق عليها وهي لا تضاهينا. لايزال «داتشون» يمد يده إليها، ولكن جعلها ذلك تشعر بالخوف، وبدأت ترفض بصوت عال وتنكمش وتتقهقر إلى الخلف. ويتصبب جبينها عرقا، وتبدو عليها علامات العناد شديد المراس، وليس لها معين. وتقلص حجمها وتتراجع إلى الخلف بعزيمة قاسية لا تلين كأنها تستخدم هذا المشهد كي تبرهن على إصرارها بعدم الانصياع حتى لو ماتت ضربا. في هذه الأثناء، يمد «داتشون» يده الأخرى، وهكذا أصبح يمد ذراعيه إليها في إشارة واضحة أنه يعتزم أن يحتضنها من فوق المصطبة، إنه بجلاء يريد احتضانها حتى يشجعها على صعود المنصة. وشاهدنا تمثيل الشاب شياو هكذا، لقد كان منظرا بارزا غير عادي. أما باي دا شنغ فلم تتقمص ملامح الراقص، ولم تتكلم بصوت عال مرة أخرى، وتقول: «لا»، لأنها فقدت القدرة على الكلام، ثم طبت على الأرض وأصابها الدوار، لقد أصابتها السكتة القلبية.

وبعد انقضاء عدة سنوات، أخبرتني باي دا شنغ أن الإغماءة التي أصابتها في سن العاشرة كانت بمنزلة حبها الأول. وقالت بصورة تحليلية إنها في ذلك الحين كانت تمقت نفسها للغاية وتفتقر إلى وسائل مجابهة الذات. وفي يومنا هذا، أصبحت باي دا شنغ بالغة في الثالثة عشرة تصر على القول إن ذلك الشاب تشياو هو أجمل رجل رأته في الصين. وأنا بعد أن شببت عن الطوق لا أوافق على كلامها مرة أخرى، لأنني بالفطرة لا أحب

الرجل كبير العينين مزدوج الجفن. وعلى أية حال، لم أزجرها، ولكن أصدرت تنهيدة عميقة تحسرا على «حبها الأول» الذي بلغ ذروة الغباء وقمة العنف. والشاب تشياو، الذي لم نقابله فيما بعد مرة أخرى، لا يعرف - إلى الأبد - أن الطفلة باي دا شنغ التي كانت في العاشرة من عمرها في ذاك العام وتقطن في حارة «فوما»، قد أصابها الإغماء بسبب حبها له. وهو لا يصدق - إلى الأبد - أن طفلة عمرها عشر سنوات تصيبها إغماءة شديدة لأنها تستطيع حقا أن تحب رجلا جميلا في سويداء قلبها. والرجال في مثل هذه السن لا يقومون باستجلاء أفكار أنثى عمرها عشر سنوات. وفي عين تشياو، أن هؤلاء الأطفال الإناث هم مجرد ثلة من الأطفال فقط، يحتضنهن مثل أي طفل آخر. ولا يعرف - إلى الأبد - أنه عندما مد ذراعيه أثار عاطفة حب عنيفة هكذا في أعماق قلوبهن، وسبب جرحا لمشاعر العديد من هؤلاء الأطفال الإناث في الحارة بغير قصد. وقد أدركن بعد التمثيل معه دور «شي أر» على المنصة نفسها، أنه - في الواقع - لا يكترث بهن أصلا بعد كشف النقاب عن حبه للطفلة «شياو ليو» القاطنة في الدار الرباعية الشرقية رقم «٣» في حي شيدان في قلب بكين، إن قلبه تعلق من أول نظرة بطفلة شيدان «شياو ليو» التي يعرفها القاصي والداني في الحارة، ولماذا طفلة في العاشرة من عمرها من الممكن أن تقع فريسة إغماءة من أجل رجل، بينما طفلة شيدان «شياو ليو» التي لم تر عينها بصورة مباشرة «داتشون» من الممكن أن تجعله مولها ومفتونا بها.

(٢)

ربما كان عمر فتاة شيدان «شياو ليو» تسعة عشر عاما، أو ربما سبعة عشر عاما آنذاك، وانتقلت مع أسرتها إلى حارة «فوما» منذ بضع سنوات خلت. وتقطن أسرتها في البيت الشمالي المؤلف من خمس حجرات في الدار الرباعية الشرقية رقم «٣». وكان مستر جيان وزوجته يمتلكان ذلك البيت أصلا، ثم اضطرا إلى الانتقال إلى حجرة البواب. ومستر جيان رأسمالي صغير كان يدير صيدلية قبل التحرير. أما أبو الفتاة شياو ليو فيعمل نجارا مشهورا في شركة البناء.

والفتاة شياو ليو قامة أبويها قصيرة نحيفة وضامرة، ولكنهما أنجبا الكثير من الأطفال وقاما بتربيتهم، ولديهما ثمانية أطفال، أربعة ذكور، وأربع إناث. الأطفال الذكور قامتهم عالية وأجسامهم قوية. والأطفال الإناث حسناوات ممشوقات القوام والقد. وأفراد العائلة من غير المثقفين، وعندما انتقلوا إلى الدار رقم «٣» كانوا يفتقرون إلى السرير، وينامون على ألواح السرير، ويأكلون الأطعمة الخشنة، ويحتسون دائما حساء الخضراوات وخبز الذرة المبخر. والفتاة الجميلة شياو ليو الجميلة حقا تربت ونشأت على طعامهم وشرابهم ونامت

على ألواح سريرهم. وحاجباها ليسا الأكثر جمالا بين أخواتها، بيد أن تكوينها رائع وجميل بالفطرة ويفتتن به الآخرون حتى النخاع، كما أنها تتمتع بالمشاعر الغرامية الفطرية التي تجذب الرجال. وبشرتها تشبه لون البطاطس، جميلة ورقيقة وتفوح منها رائحة طيبة وحلوة تغص بالدفء مثل النشارة الجديدة، وعيناها الواسعتان المرطبتان الدقيقتان تبدوان نصف مغمضتين دائما، كأنها لا ترى الأشياء أمامها بوضوح، أو كأنما تتعمد أن تخفي أهدابها الطويلة تلك مقلة العين السوداء المتقدة. كما أنها تستخف بالطفلة التي تسير على درب العادات الروتينية وتقعص ضفيرتها بشدة، أما هي فتقعص ضفائرها وتجعلها رخوة لينة دائما، وتترك خصلات من شعرها الناعم يطير حول سوالفها، مما يجعلها تتحلى بالجرأة التي تطاول السماء، وتبدو نعسانة ومرهقة، ومزهوة بنفسها أيضا، كأن رأسها غادرت الوسادة توا، بل أكثر شبها بالفتاة التي عاشت مع الرجل حياة المجون والاستهتار. وفي الواقع، من المحتمل جدا أنها انتهت في الحال من شطف القدر الذي طبخت فيه حساء الخضراوات، أو تناولت أعشاب الخردل الذكية المملحة مع خبز الذرة الأصفر المبخر. وفي المساء كل يوم، عندما تأكل خبز الذرة المبخر وتشطف القدر تظهر عليها علامات الإرهاق والكسل على هذا النحو، وتستند على مدخل الباب فترة، أو تمخر عباب الحارة بأسرها حتى تصل إلى دورة المياه العامة. وعندما تترجل في الحارة تبرز للعيان بصورة كاملة قوامها المشوق الذي يخطف الأنظار ويسلب لباب الناس. وكان ذلك في زمن ارتداء البنطال

الفضفاض ولا تعرف الوسيلة التي لجأت إليها شياو ليو وعدلت بنطالها وجعلته يجرؤ على غير المتوقع أن يلف بإحكام خطوطه الملتوية ويجسد جسمها. وتتهاوى في مشيتها، وقوامها ممشوق، وجمعت بين الصفات الفريدة من المشي البطيء والقد الممشوق، وطريقتها في المشي أظهرت نوعا من الجاذبية والسحر جعلاها تشعر بالأنفة. وتلبس شبشبا عادة، وتصبغ أظافر قدمها بلون المشمش الأصفر الكريه باستخدام عصير المجزاعة(٤).

وفي ذلك الحين، من يتجاسر على صبغ أظافره في الحارة، بل في بكين كلها، إنها شياو ليو الوحيدة التي تتجاسر على ذلك. وعندما تمشي لا يلتفت إليها أحد، كما أنها أيضا تعتزم عدم الاكتراث بالآخرين لأنها تدرك أنه لا أحد يعيرها اهتماما في الحارة. وعلى كل حال، فتاة مثلها تفتقر إلى صديقات، ولكنها غير ذات بال لأن لديها أصدقاء. وتنضم إلى عصابة أطلق عليها «ارتال شيدان»، ولقب «فتاة شيدان شياو ليو» حصلت عليه بعد انضمامها إلى هذه العصابة. والعودة إلى حقيقة اسمها ربما يجب أن تسمى «شياو ليو»، لأنها تبوأت الترتيب السادس بين أخواتها. والعصابة التي انضمت إليها شياو ليو يحتشد فيها عشرة من الشباب وأكثر الذين لا يطالعون الكتب (بل ليس لديهم كتب يقرأونها) ولا يعملون، ويتحدرون من منبت عائلي طيب، ولا يخافون السماء ولا يرهبون الأرض، يتنقلون بين حارات حي شيدان بصفة خاصة، ويضطلعون بالأعمال الشريرة من خطف القبعات العسكرية، وسرقة الدراجات، وأجراس

---

(٤) نبتة تتفتح أوعية بذورها إذا لمست [المترجم].

الدراجات، ثم يحملون المسروقات من تلك القبعات والأجراس إلى مكتب وساطة يبيعونها ويحصلون على النقود التي يبتعون بها السجائر والخمر. وكانت القبعات العسكرية وأجراس الدرجات - في ذلك العهد - بمنزلة تطلعات في حياة كثير من الشباب، وإذا استطعت الحصول على قبعة عسكرية من القطن المخملي وقتئذ يكون أفضل من اقتناء معطف كشمير جودته ممتازة في عالم اليوم، وإذا استطعت تركيب جرس في دراجتك يومذاك، فهي أفضل من الهاتف النقال الجميل الذي تضعه في جيبك اليوم. وشياو ليو داخل أروقة صفوف هذه العصابة كانت - كما قيل - الفتاة الوحيدة ولا تشارك في خطف تلك القبعات وسرقة تلك الأجراس. وكانت سعادتها تكمن في أنها تنام مع جميع الرجال داخل صفوف هذه العصابة. إنها تنام معهم إلى درجة أنها يعوزها التفكير في المنفعة المادية التي تتسم بها الفتاة من هذا النوع، ولا يوجد سبب في جعبتها لهذه الممارسة ما دامت تشعر بالغبطة والبهجة لأنهم يحبونها. وتبلغ ذروة فرحتها عندما تجعل الرجال يقعون في حبائلها، وتجعلهم أيضا يتعاركون من أجلها.

وطبعا، لا يخفى عن أعين الناس خلاعتها ومجونها. وأبوها النجار ربطها في الفناء وجعلها تركع فوق خشبة الغسيل. وكان من المقدر أن تجعل إخوتها لا يرفعون رؤوسهم، ولكن علاقاتها بهم كانت طيبة بصورة غير عادية.. وعندما تركع فوق خشبة الغسيل، يتزاحمون أمام الأب للتوسل إليه بالإنابة عنها. وكان الركوع عقابا لها ويستغرق وقتا طويلا دائما، وتستطيع الركوع

مـن بعد الظهر إلـى منتصف الليل في بعـض الأحايين. وأبوها ينـزع ملابسـها الخارجيـة فـي كل مـرة. وكان اسـتعطاف الأب مـن قبـل إخوتها غيـر ذي جدوى. ويشـعرون بالألـم الدفين في أعماقهـم عندمـا يرونها تتضـور جوعا وترتعد بردا فوق خشـبة الغسيل. وأخيرا، ذات مرة، عرف شركاء شياو ليو وأصدقاؤها في صفـوف العصابة أنها تركع الآن فوق خشـبة الغسـيل، ثم شـنوا «سـطوا مباغتـا» على الدار رقـم «٣» في الحارة في جـوف الليل، وتسـلقوا الجـدار ودخلـوا الفنـاء، وفكـوا شـياو ليو من أسـرها، ولفوهـا فـي بطانية صوف فيهـا الخيوط الحمـراء تتعاقب مع البيضـاء، وحملوهـا علـى مناكبهم وغـادروا الفنـاء. وبعد ذلك، اعتلـى كل واحـد منهم دراجته المصنوعة مـن الفولاذ المنجنيزي ماركـة العنقـاء «٢٨». وشـحذوا قوتهم مـرة أخرى، واسـتعرضوا عضلاتهـم وتهديدهم بالقـوة، وفي الوقت نفسـه، دوت الأصوات الجليـة الناعمـة للأجراس المعلقـة على أذرع الدراجـات، وحفوا بشياو ليو، واختفوا عن الأعين مثل عصفة ريح في الحارة.

سـمعت أنا وباي دا شـنغ جلبـة الأجراس التي تخـرق الآذان في الحارة في جوف الليل في ذاك اليوم. كما سـمعتها جدة الأم وجحظـت عيناها وقالت فـي حيرة بالتأكيد حادثة وقعت في دار فتـاة شـيدان شـياو ليو. وفـي اليوم التالـي، انتشـرت أقاويل في الحـارة حول تعرض شـياو ليـو لعملية «اختطـاف». وأثارت هذه الأقاويل شـدة التأثر والانفعال التي لم أستطع أنا وباي دا شنغ كبـح جماحها، فضلا عن الفضول والشـعور بالقلق. وهرولنا في الحـارة نطـوف على مقربة من الدار رقم «٣» آملا في العثور على

دليل عملي من كافة الجوانب يقودنا إلى رأس الخيط في هذه الأقاويل. وسمعنا - فيما بعد - أن الشقيق الثالث لشياو ليو هو الذي أفشى المعلومات السرية إلى عصابة شيدان، وليس شياو ليو التي أخبرت أصدقاءها بالعقاب الذي تتعرض له في دارها. من رآهم يلفون شياو ليو ويخطفونها في بطانية صوف فيها الخطوط الحمراء تتعاقب مع البيضاء؟ ومن يستطيع أن يميز بين الألوان بجلاء في جوف الليل؟ ومن يعرف أن تلك البطانية تتعاقب فيها الخطوط الحمراء والبيضاء؟ وظهرت إلى حيز الوجود بعض هذه الأسئلة، ولكن مثل تلك الأسئلة - بالنسبة إلينا - تفتقر إلى الجاذبية. ومن الصعب أن ننسى مثل هذه الثلة من الرجال الذين يعملون كرجل واحد ويوحدون تصرفاتهم، وينقذون الفتاة القابعة فوق خشبة الغسيل ويحبونها. ولكن أسلوبهم في إنقاذها أحدث هزة في أعماقنا. ويبدو أن شياو ليو باتت أكثر غرابة وعجبا هكذا، حيث عادت أدراجها إلى بيتها بعد بضعة أيام كأن شيئا لم يحدث، وبدأت في الأصيل تسند ظهرها على الباب وتقف في الشارع.. وتأخذ في يدها إبرة صنارة. وتضع في جيبها كرة الخيط الأبيض، وتهز معصمها وتحبك ياقة بسيطة عادية تشبه أسنان الكلب. ومن المحتمل جدا أن ابن أخ الجدة جاو القاطن في الدار رقم «٩»، أنه «داتشون» صاحب الشعر الأجعد ينظر إليها آنذاك، وشياو ليو - بالتأكيد - في ذلك الحين ترمقه بطرف عينها من المقلة السوداء أسفل أهدابها.

وكان التعارف مقدرا لهما ولا تعوقهما أية عقبات. وسمعنا الجدة جاو تقول لجدة أمها إن «داتشون» الموسوس انتهى من

عمليته منذ فترة طويلة، وأرسلت إليه وحدة عمله رسائل عديدة، تحثه فيها على العودة إلى العمل، ولكنه لم يولها اهتماما، ولم يكترث بنصيحة الجدة جاو، ولم يكن في الحسبان أن يطلب الزواج من شياو ليو وتغادر معه بكين. تضحك شياو ليو وتقهقه وترفض كلامه، ولكنها تختلس الوقت وتتقابل معه. وفيما بعد، تم ضبطهما في الحوش الخلفي للجدة جاو من قبل ذلك الشريك في عصابة شيدان. وكما حدث في تلك الليلة، تسلقوا الجدار ودخلوا الحوش، ولفوا شياو ليو المتجردة من ملابسها في بطانية وخطفوها، أما «داتشون» فقد ضربوه ضربا مبرحا، وهددوه بالخنجر وطردوه من بكين.

وذكر البعض في الحارة أنه في تلك المرة التي تتسلل فيها أفراد عصابة شيدان إلى الحوش الخلفي لدار الجدة جاو كان من تدبير شياو ليو عن قصد. واستجاب داتشون لرغبتها بمجرد أن ارتعشت. وكانت غبطتها الغامرة في فضح الرجل أمام عينها. وإذا كان هذا الكلام حقيقيا، فإن شياو ليو تبدو حقيرة إلى حد ما. وتستغل الجمال والقبح معا في إحداث جرح غائر في قلب «داتشون».

وغادرت بكين في تلك الفترة، ورجعت إلى جوار أبويّ في المدينة «B». وكان أبواي آنذاك انتهيا حالا من العمل في مدرسة الكوادر (السابع من مايو) في جوف الجبل، وكان أول عمل اضطلعا به بعد عودتهما إلى البيت هو استعادتي من بيت جدة الأم، حيث يريدان أن أواصل دراستي في هذه المدينة. وكانا يحرصان على أن نجتمع ونمكث معا، بيد أن قلبي معلق

منــذ ردح طويل بحــارة «فوما» في بكين. وأعــرف أن هؤلاء الكبار البالغــين فــي الحارة لا يشــتاقون إلــيّ أنا الطفلــة التي تربطني بهم علاقة، ولكني منهمكة كل الانهماك في الشــوق إليهم مثل: «داتشون»، ذي الشعر الأجعد، وفتاة شيدان شياو ليو، والجدة جاو، بــل حتــى أتوق إلى القطــة نيونيو في دار الجدة جــاو. ويدور في مخيلتي إذا أصبحتُ القطة نيونيو أســتطيع المكوث طوال الليل والنهار مع «داتشــون». كما أســتطيع أيضا أن أرى قصته الكاملة مع شــياو ليو. وســمعت أنــه عندما ألقى أفــراد العصابة القبض على «داتشــون» وشــياو ليو في الحوش الخلفي لــدار الجدة جاو، كانت نيونيو تعوي فوق ســقف البيــت. إنها تعوي وتهيب بالناس للإنقــاذ، أم تهتــف شــماتة في مصائب الآخريــن؟ ولكني أريد أن أصبح قطة هل لأنني أعتزم أن أرى ما هي القصة بين «داتشــون» وشياو ليو؟ لأنني مازلت لا أعرف ماذا يفعل رجل وامرأة اجتمعا معــا من منظــور عمري وقتئــذ. وكانت حالتي النفســية ليســت الحســد والغيــرة حتما، بل كنت كســيرة الفؤاد بصــورة فوضوية، وحزينة بصورة تبتعد عن صميم الموضوع، وذلك لأنني لست مثل باي دا شــنغ «أحب» ابن أخ الجدة جاو بصورة مجنونة هكذا، كما أننــي أمقــت أن تقــول الجدة جاو إن شــياو ليــو أصبحت الجنية الثعلبــة. وأحــب هذا الشــاب «داتشــون» وهــذه الفتاة شــياو ليو، وأحب شــياو ليو بشــكل أكبــر. ولا أصدق أنها تعمــدت أن تفضح «داتشــون» فــي ليــل ذاك اليــوم، وإذا افترضنا أنهــا قصدت ذلك، فلمــاذا؟ وســامحتها في صميم قلبــي، وأظهــرت ملامحي دناءة وخســة آنــذاك. وهــذه الفتــاة صاحبــة العــادة الســيئة من صبغ

أظافر قدمها باللون الأصفر المشمشي أحيت في داخلي مشاعر الحرية السوداء اللانهائية، وأظهرت على الملأ أحلامي التي أتوق فيها أن أكون مثل تلك الفتاة المفعمة بشعور الجريمة. وبعد عشر سنوات ونيف، شهدت فيلم «الملكة الفاتنة المصرية» بطولة الممثلة إليزابيث تللر، وعندما رأيت الملكة المصرية الفاتنة توصي الناس أن يلفوا جسمها شبه العاري بالسجاد الإيراني وحملها على الأكتاف إلى أمام الإمبراطور القيصر، جال بخاطري في التو الفتاة شياو ليو في حارة «فوما»، تلك الفتاة الحسناء، وتلك الشخصية التي تشبه هذه الملكة، وهي أيضا الشخصية التي لعنها الرجال والنساء شفاهة.

ولم أخبر بنت خالتي الصغرى باي دا شنغ بمشاعري وأفكاري تجاه الفتاة شياو ليو منذ زمن طويل جدا، انطلاقا من اعتقادي أن ذلك يعتبر من المحرمات، ففي تلك السنة التي شهدت اختطاف شياو ليو، أصاب باي دا شنغ الإغماء بسبب حبها لـ «داتشون». وبالإضافة إلى ذلك، ومع قدوم مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، عاد البيت الشمالي المؤلف من خمس حجرات الكائن في الفناء رقم «٣» إلى صاحبة مستر جيان، وانتقلت أسرة شياو ليو إلى مكان آخر. لقد اندثر ظلها في حارة «مافو»، وليس في جعبتي ثمة ضرورة بالتأكيد أن أذكر اسم شياو ليو أمام باي دا شنغ. حتى جاءت الفرصة ذات مرة، منذ عامين تقريبا، عندما كنت أنا وباي دا شنغ في بار «شيانغ مو تونغ» (برميل الخمر المصنوع من شجر البلوط) في حي يهانلتون في بكين، ورأينا شياو ليو هناك. إنها لم تذهب هنالك للتسلية، إنها أصبحت الآن صاحبة هذا البار.

إنه بار صغير يقلد الأسلوب الأجنبي ويعج بالنشاط، كما يغص بروائح مختلطة ومفعمة على غرار قاعات الطعام الأجنبية من روائح جسم الإنسان، والقرفة، والغرنوقي (إبرة الراعي)، والكاري.. ويبدو أن النشاط التجاري للبار لا بأس به، وأضواء الشموع فاتنة، والزبائن كثر معظمهم من الأجانب. ويعلق على الجدار بعض جلود الحيوانات والسهام وغيرها من هذه الأشياء. كما توجد – أمام طاولة البار – مغنيتان من أمريكا الجنوبية تعزفان على الجيتار الإسباني وتصدحان بأغنية «قبلني يا جيمي». في هذه الأثناء، رأيت شياو ليو. وعلى الرغم من أنني لم أرها منذ عشرين عاما ونيفا، بيد أنني تعرفت على ملامحها عندما وقعت عيني عليها في ظلال أضواء الشموع الخافتة. ومن أجل ذلك، أكره القصص المفبركة حسب الأهواء والروتينية، وتقول إن فلانا وفلانا لم ير أحد منهما الآخر منذ أكثر من عشر سنوات ولم يعرف أحدهما الآخر تماما، ومن هنا ينبثق العديد من سوء الفهم وغيرها من الأمور الأخرى، وكيف من الممكن أن يحدث ذلك؟ وعلى كل حال، لا أجيد هذا التكلف والتصنع. لقد تعرفت إلى شياو ليو في عقدها الثالث وأكثر، أليس كذلك؟ ولكنك لا تستطيع أن تصفها بـ «صفات الرجل العجوز الذي أكل عليه الدهر وشرب وأصبح مثل اللؤلؤ الأصفر». وترتدي فستانا أسود رقبته منخفضة، وتعلق في أذنها قيراط ألماظ شكله مثل عباد الشمس، وشديدة البدانة، ولكن تكوينها متناسق، ومازالت جميلة وفاتنة، ومفعمة بالثقة تجاه هذا الجمال. والآن تمشي وتتقدم إلينا، ومشيتها تشبه نظيرتها في الماضي في حارة «مافو»، وخطواتها

حـرة طليقـة، وتعابيـر وجهها أكثر مودة عـن ذي قبل، فقد ذاقت مـن الدنيـا حلوهـا ومرهـا. وتظهر ملامحهـا أنها تعيـش حياة هنيئة ومرتاحة البال جدا، على الرغم من أنها تتحلى بالسوقية إلى حد ما. وقلت لباي دا شـنغ: هه، إنها فتاة شـيدان شياو ليو. وفي ذلك الحين، تعرفت علينا شياو ليو وأقبلت نحونا، وتقدمت وقالـت: كنا جيرانـا في الماضـي. تضحك وتطلب مـن النادل أن يحضر لنا كأسـين من الشـراب، هدية منها تكريما لنا. وتنطوي ضحكتها على مودة اسـتعادة ذكريات الماضي في موطن الإقامة، وهي ضحكة لا تمقتها، وتخلو من الشـعور بالإكراه على البغاء. وضحكـت أنا وباي دا شـنغ في وجه شـياو ليو أيضـا. وضحكتنا خالية من النوايا السيئة، وانتابنا شعور الدهشة لطفلتين عاشتا فـي الحارة في الماضي وتعرفـت كل منهما إلى الأخرى فجأة. ولا تعرف كيف ندعوها، واضطررنا أن نبسط ذلك، كما مدحنا بارها مدحـا كبيرا في أدب ولا يفسـد الحقيقـة. وتقبلت مدحنا بفرح شـديد، وتلـوح بيدهـا وتنادي على شـاب في مكان نـاء ومنهمك في عمله، ومناكبه عريضة وظهره ضخم. يحضر الشـاب أمامنا وتقدمه إلينا شياو ليو قائلة: إنه زوجي.

وفـي مسـاء ذلـك اليوم، قضيت أنـا وباي دا شـنغ ليلة هنيئة جدا في بار «شـيانغ مو تونغ» وجعلتنا شـياو ليـو وزوجها، الذي يصغرها بنحو عشـر سـنوات على الأقل، نتنهد تحسـرا مرة تلو الأخرى. كنا نتحسـر على هذه الفتـاة التي لا تقهر، الفتاة التي لا تهـزم مثـل اللغز تماما. وطلبت منـي أن أخمن من هي الفتاة الأكثر تقديسـا لديها؟ ولم أسـتطع التخمين، وقالت إنها الفتاة

شـياو ليـو، إنها منـذ نعومة أظافرها تقدسـها. كمـا أنها تتلهف أن تسـتطيع وتصبح مثل فتاة شـيدان شياو ليو: فخورة بنفسها، جميلة الطلعة، تجعل الرجال يلتفون حولها، وتصادق منهم كما تشاء. وتقف عادة أمام المرآة الخاصة بالزينة، وتقلد شكل الفتاة شياو ليو من ضفر الشعر بصورة رخوة، ثم تشد مرة تلو الأخرى عـدة خصلات من شـعرها على صدغها. ثـم تتكئ على إطار باب الحجرة الداخليـة، وتتدلى جفونها، وتبدو عليها أمارات الحيرة فتـرة مـن الوقت، وبعد ذلـك تترك إطـار الباب، ولـم تعد تدرك جوهـر الموضـوع مرة أخرى، وتمشـي مترنحة فـي الحجرة وتدور داخلها عدة لفات. وتتأمل نفسـها في المرآة، فهي شـديدة التأثر وتتحـرك في الظلام مثـل الخفافيش، مفعمـة بالثقة، وخمدت همتها أيضا. رأسها مثقلة بمثل هذه الأفكار وتهرول خارج البيت إلـى الشـارع، وطبعا لم تهرول قط على هـذا النحو وتغادر بيتها وتهرع في الشارع، ولم يرها أحد – وأنا أيضا – تقلد المنظر الغريب للفتاة شياو ليو.

في ذاك المساء، كانت عيني تحدق في باي دا شنـغ ذات القامة العالية مثل الفرس، وتمشي بجواري، وأحدق في جانبيها أيضا، وأفكر أنني لم أفهم هذه الفتاة حقا.

(٣)

بعد أن شبت ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ عن الطوق، ظلت نقية السريرة وشريفة في إطار الحنان والعطف، مما جعلني أشعر دائما بأن ذلك هو البقية من الأخلاق في هذا العالم. وكانت طالبة مجتهدة في المدرسة الإعدادية وفي الجامعة أيضا. كما كانت رئيسة قسم الدعاية في اتحاد طلاب الجامعة عندما كانت في الفرقة الثالثة الجامعية. ومن طبيعتها الشعور بالبهجة لمساعدة الآخرين، والمشاركة بحماس في الأنشطة الاجتماعية، ومهما كلفها التأخير في دروسها تشارك في الأنشطة المتعددة والمختلفة. وتفكر في الخفاء ربما لا تحب فحص ذاتها في الأصل. وكانت تدرس في قسم علم النفس، وأحيانا تعود خلسة إلى مسكن الطالبات وتغط في نوم عميق، ويتزامن ذلك مع ميقات إلقاء المحاضرات. ولكن هذا التصرف لم يعوقها عن التخرج بسلاسة. وبعد التخرج، التحقت بالعمل في فندق النجوم الأربعة كايلون، ثم عملت بصورة دائمة ومستقرة في قسم المبيعات. وهناك تبيع العقارات والاعتماد فقط على الزبون غير المستدام، والزبون الدائم لشركات السياحة ليس كافيا، ويجب الأخذ بزمام المبادرة والبحث عن مصادر البزنس. وكان هدفها مؤسسات الاستثمار

المشـترك والفردي، ووكالات الشـركات الأجنبية فـي مدينة بكين. ويجب عليها دائما – في المباني الإدارية كتلك المؤسسات – التنقل بلا روية وزيارة الأشـخاص في المكاتـب من أجل الترويج لحجرات الضيوف في فندق كايلون مع تقديم بعض الشـروط التفضيلية. وأطلـق موظفـو هذا الفنـدق على هـذا العمل اسـم «التجول في كافـة أرجـاء المبانـي». وعندما تسـمع الأذن هذه التسـمية تشـعر بقـوة جبـارة قاصمة. إن إلقـاء نظرة خاطفة إلـى المباني أو جذب الزبائـن فـي طرفة عين ليـس إطلاقا ضربا من ضروب التسـلية. ولـم يهتد تفكيري دائما إلى ما تعتمد عليه باي دا شـنغ وتعتبره رأس المـال فـي علاقاتهـا العامـة لـ «التجول فـي أرجـاء المباني». أو فـي عبـارة أخـرى، تفتقـر باي دا شـنغ دائما إلى سـند يجعلها تتفـوق فـي العلاقـات العامة حيـث إن ملامحها عادية، وشـعرها خشـن وقصير، ولا تهتم بهندامها، وتحب ارتداء قمصان الرجال، وعلـى الرغـم من أن قامتها ليسـت قصيرة، ولكـن خصرها طويل وقدمهـا قصيـرة، كما أن مؤخرتهـا بدينة، مما جعلهـا تبدو غبية أثناء سيرها في الطريق. وإنجازاتها في «التجول في أرجاء المباني الإداريـة» جعل اسـمها في الطليعة في قسـم المبيعـات. وما الذي تعتمـد عليه «باي دا شـنغ» هل تعتمد علـى خصالها التي تتمتع بهـا منذ نعومـة أظافرها حتـى الكبر من «العطـف والخير»؟ هل تعتمد على المشـاعر الحقيقية التي تتدفق من سـويداء قلبها في معاملة الناس، وتوقعك في الحيرة؟

وعندي خبرة ودراية بالمشـاعر الحقيقية لدى باي دا شنغ في معاشـرة الناس. وعندما كانت باي فـي الفرقة الثانية الجامعية

فـي ذاك العـام، جـاءت إلـى المدينة «B» للمشـاركة فـي التدريب العسـكري المغلق لطلاب الجامعات في معهد القيادة العسكرية. واتصلت بها هاتفيا عندما انتهت من التدريب العسكري، وطلبت منها ألا تعود إلى بكين أولا، بل تمكث يومين في هذه المدينة وتقيم فـي بيتي. وكنـت تزوجت توا آنذاك وفي أقصى درجات السـعادة، وأرغـب في أن ترى باي دا شـنغ بيتي الجديد وتتعرف إلى زوجي (وانـغ يونغ) الـذي ذكرته لها مرات عديدة وكثيـرة. ووافقت باي دا شـنغ بسـرور. وكان حديثها الهاتفي مع زوجـي حميما للغاية واهتمت به اهتماما كبيرا. واستقبلناها ودخلت بيتي، وأعددنا لها مأكولات طيبة ومتنوعة وكثيرة. وتذكرت سنوات طفولتي في حارة «مافـو»، وشـراء القازوزة المثلجة مـن المدخل الجنوبـي في الحارة. كمـا اشـتريت – على وجه الخصـوص – مثانة الخنزير المحشـوة التي تعتبر أشهى المأكولات بالنسـبة لي ولباي دا شنغ منذ عهد الطفولـة. وأسـرع أبـواي، وخالة باي دا شـنغ وزوجهـا بالحضور إلـى بيتنـا، وتناولنا الطعام معا. وقـال الجميع في صوت واحد: التدريب العسـكري جعل بشـرة باي دا شـنغ سـمراء، كما جعلها قويـة أيضا. ومـن هنـا كان رأس الخيط في الحديـث. وحدثتنا باي دا شـنغ عن أيام تدريبها العسـكري. ولا شك في أنها تضمر حنينـا غير محدود للتدريب العسـكري، وقدمـت لنا بالتفصيل الأنشـطة اليوميـة، من البكور والنهوض من الفراش إلى المسـاء والخلـود إلـى النوم، والتدريب علـى القتال مع حمـل الحقيبة علـى الظهر، وارتداء الزي العسـكري الملون، والأشـياء التي تباع فـي دكان الجيـش، وقائد الفصيـل طيب القلب الـذي يعاملهن

بصرامــة، ولكــن الجميع لا يشــعرون بالامتعاض منــه، وهو من أهالــي مقاطعة شــاندونغ، وكلامه فيه لكنة، ولكنه ليس ســوقيا البتــة. وأنتــم لا تعرفون النزعــة العاطفية الإنســانية المتأججة لديه، ولا تعتقدون أنه يعرف فقط: «وقفة الانتباه»، و«وقف وقفة الاستراحة»، و«الدوران ناحية اليمين»، بل يعرف أيضا الزحف إلى الأمــام وإطلاق الرصاص من البندقية. إنــه قائد الفصيل الذي يعرف العــزف على الكمان (الأكرديــون)، ويجيد عزف المقطوعة الموســيقية «حكايــة العاشــقين ليانغ وجو». حســنا، وهناك أيضا الموجه السياسي في الجيش.

أعددنــا وجبــة طعــام كاملــة. ولكن بــاي دا شــنغ غارقة حتى أذنيهــا فــي اســتعادة الذكريــات الجميلــة للتدريــب العســكري. ولــم تــر الطعــام أمــام عينيها، ولــم تر مثانــة الخنزير المحشــوة التــي اشــتريتها خصيصا مــن أجلها، كما لم تــر خالتها ولا زوج خالتها، وكذلك لم تر زوج أختها الكبرى وانغ يونغ، ولم تر بيتي الجديد الذي يبث في النفوس الفرح والارتياح. إنها لا ترى شيئا عــدا التدريب العســكري، وقائــد الفصيل، والموجه السياســي في الجيش. وفي تلك اللحظة، يبدو أن جسمها في مكان ما، وليس مهمــا بالنســبة إليهــا مع من تجلــس، وحتى لو أخذتهــا ورمتها في الشــارع، فإنهــا في غاية الرضا عن النفس مــا دام من الممكن الســماح لها بأن تتحدث عن تدريبها العســكري. وعندما غشيت باي دا شــنغ الحمام للاســتحمام بعد تجهيز الماء، قمت بإدخال منشــفة الحمام إليها، ومن يدري أن هذه المنشفة تجعلها تحبس نفسها في الحمام وتنخرط في البكاء. وسألتها من خلال الباب

الـذي يفصـل بيننـا مـاذا دهاك؟ مـاذا أصابـك؟ ولكن لـم أتلق ردا منهـا. وبعد فتـرة وجيزة، خرجت من الحمـام ووجهها أحمر ومنتفخـة الأوداج، وتتدفـق الدمـوع من مآقيها، وقالـت لي إنها الآن لا تتحمـل رؤيـة الألـوان الخضـراء، وأي لـون أخضر يمكن أن يجعلهـا تتذكـر الجيش، وتتذكـر جيش التحريـر. ولم تكمل كلامها ودسـت وجهها في المنشـفة الخضراء وراحت تبكي، كأنما المنشفة هي الزي العسكري لقائد فصيلهن.

إن اشتياق باي دا شنغ إلى ثلة هؤلاء العسكريين والذي لم تكبح جماحـه يجعل المرء يشـعر بالضجـر، كما جعـل ملامحها تبدو مشوشـة مضطربة ولا تدري الأمور حولها على وجه الخصوص. ولا أحب أن أسمع قصة تدريبها العسكري مرة أخرى، كما انتابني القلـق جـراء أن زوجي وانغ يونغ لا يحب ابنـة خالتي الصغرى. وفي صباح اليوم التالي، وبعد تناول الإفطار اقترحت أن أصطحب باي دا شـنغ ونتجول في الشـوارع، فهي مازالت لم تشاهد معالم المدينة «B». ووافقت باي دا شنغ أن نمشي معا في الشارع، ولكن ما لبثت أن سـألتني عن مكتب بريد قريب، وأخبرتني أنها كتبت عدة رسائل أمس لقائد الفصيل. وتريد أولا أن تذهب إلى مكتب البريـد وترسـل الخطابات. وأردفت أنها وعدتهـم أن تكتب إليهم عندما تعود أدراجها، وأن كلامها يؤخذ على محمل الجد. وقلت: لكـن أنت لم تعـودي إلى بكين بعد، فقالـت: إذا بعثت الخطابات مـن هنا تصل إليهم في وقت أسـرع. آه، إنـه منطق وحجة باي دا شنغ. ومن حسن الطالع، وبعد فترة قصيرة، شهدت حارة «فوما» سلسلة من التغيرات، ولكن حنينها واشتياقها إلى أهلها الأعزاء

في جيش التحرير يستمر إلى أي سنة، وإلى أي شهر.

وقبل ذلك، رحلت عن دنيانا جدة الأم، وقبل رحيلها أصابها الشلل لمدة ثلاث سنوات، وكانت تمكث دائما مع أبوي باي دا شنغ، أي أنها تعيش مع خالتي وزوج خالتي. ولكن بسبب استدعائهما من مكان آخر والعودة إلى بكين في مطلع الثمانينيات، ومن ثم مكثت جدة الأم أطول فترة زمنية مع باي دا شنغ. وأقول من ذاكرتي إن هذه الجدة كانت أيضا الأكثر لوما وزجرا لباي دا شنغ. لا سيما بعد أن أصابها الشلل، أصبح توجيه اللوم لباي دا شنغ من مباهج حياتها، ولم يتغير مضمون كلمات تعنيفها طوال عشرين عاما ونيفا، لا أكثر ما سمعته منذ نعومة أظافري من كلمات ما تعودت أذني على سماعها مذ ذاك من «غبية»، و«شاردة اللب» وغيرها. وذلك في الوقت الذي كانت فيه باي دا شنغ دائما العاملة الكادحة التي تحتضن جدة الأم من السرير وتنزلها إلى الأرض حتى تتبول وتتبرز، ثم تحتضنها مرة أخرى وتعود إلى السرير. وباي دا منغ، الشقيق الصغير لباي دا شنغ، لا يمد يد مساعدة لها، ولكن جدة الأم تميل إليه وتهدي له مصاريف الجيب التي يرسلها الأخوال إليها كل شهر. وباي دا منغ يتكئ على مقدمة سرير جدة الأم التي تسحب النقود من تحت الوسادة وتعطيه إياها. وذات مرة قلت لباي دا شنغ إن المعضلة الكبرى في حياة الجدة أنها تتحيز للابن الأصغر، وأفسدته بالتدليل، وأصبح الطفل المدلل الصغير. وبالإضافة إلى ذلك، إذا كان هو الطفل المدلل الصغير، فأنت الأخت الكبيرة المدللة. وبادرتني باي دا شنغ قائلة في التو إنها ترغب في أن تجعل الجدة

تضطلع بحماية باي دا منغ لأنه عانى العديد من الأمراض منذ نعومة أظافره. باي دا منغ يستحق الشفقة والرحمة! تقول باي دا شنغ والدموع تبلل عينيها، وطلبت مني أن أقلب في ذاكرتي، إنه عندما ولد وفي قماطه أصابه السعال الديكي، وعندما بلغ العامين، سدت حبة بقولية حنجرته واحتبست أنفاسه وكاد يموت، وفي سن الثالثة أجرى عملية الفتاق في الأمعاء الدقيقة، وفي الخامسة بين خريف ذاك العام سقط في البئر الجافة في صحن البيت وشجت رأسه وسال منها الدم، وفي سن السابعة عانى من الالتهاب السحائي، وفي العاشرة اصطدم بزملائه في الدراسة وسقط على السلم أمام مدخل الفصل وسقط القاطع من أسنانه.. وفي الحادية عشرة... وفي الثانية عشرة... لماذا كل تلك المصائب والحوادث المسفة تصيب باي دا منغ، ولماذا أنا لم تصبني أية كارثة؟ وعندما أتذكر ما يعتمل داخلي تصيبني نوبة من الألم، والتوجع كاد يقضي عليّ.

والأحداث التي سردتها باي دا شنغ تجعل المرء يشعر بأنها دائما تعاني من الآلام في أعماقها من أجل أن تنعم نفسها بالصحة، كما أنها تشعر دائما بالخجل لأنها ليست مثل شقيقها الأصغر الذي تعرض لكثير من المصائب والعديد من الأمراض. وماذا في جعبتي من كلمات، وإذا مضيت قدما في الحديث مرة أخرى يبدو أنني أذرع الانقسام بين الأخت وأخيها، على الرغم من أنني لا أشعر بالارتياح نحوه.

رحلت عن دنيانا جدة الأم، وبكتها باي دا شنغ حتى كادت أنفاسها تختنق مرات عديدة. وكنت أفكر وأخمن - من البداية

حتى النهاية - علام كل بكائها وعويلها، والجدة طوال حياتها لم تعاملها بحنان، ولكن ما بقي في قلبها أن الجدة طيبة وحنونة. وذات مرة، قالت لي عن جدة الأم - على كل حال - امرأة عجوز محنكة ذاقت مرارة التجارب في الحياة. وفي ذلك الحين، وفي أواخر حقبة السبعينيات، شهدت طاولات دكاكين مستحضرات التجميل زجاجات طلاء الأظافر، واشترت باي دا شنغ زجاجة، وقالت لها الجدة يجب عليك أن تشتري محلول إزالة دهان الأظافر معها، وإلا كيف تتخلصين من هذا الطلاء؟ وآنذاك أدركت باي دا شنغ حقيقة كلام الجدة، وأن هذا المحلول له أهمية طلاء الأظافر نفسها. ودلفت إلى الدكان مرة أخرى لشراء محلول إزالة دهان الأظافر، وذكر البائع أنه لم يسمع عن هذا المحلول. وقالت باي دا شنغ لي: آه، إنهن لا يعرفن - وقتئذ - محلول إزالة طلاء الأظافر، ولكن الجدة تعرفه. أأنت تعتقدين أنها اجتازت العديد من التجارب بحلوها ومرها؟ وقلت لنفسي أي التجارب والخبرات التي اكتسبتها الجدة، ولكن لم أذكر لها ذلك في نهاية المطاف، ولا أريد تعكير صفوها. وشعرت أنا وحدي بأنه من السهل على المرء أن ينتزع إعجاب باي دا شنغ.

وبعد أن رحلت جدة الأم، وزعت وحدة عمل الخالة، وهي المدرسة الأساسية الإعدادية داخل المدينة، عليها وحدة سكنية تتألف من حجرتين في إطار مشروع الإقامة المستقرة للمعلمين. وتشاورت العائلة وقررت: تقطن الخالة وزوجها وباي دا منغ في المسكن الجديد، بينما تقيم باي دا شنغ في البيت القديم في حارة «فوما»، ومن ذلك اليوم فصاعدا، أصبحت باي دا شنغ

سيدة بيتها، وتستطيع هناك أن تبني نفسها بنفسها، وأن تتزوج وتنجب ذكورا (أو إناثا) وتقيم هناك إلى الأبد. والمنطقة التجارية في غرب مدينة بكين التي تعتبر قطعة من الذهب تستحوذ على إعجاب المرء. وبدأت باي دا شنغ آنذاك قصة حبها الثاني (إذا اعتبرنا أن قصة حبها الأول عندما كانت في العاشرة). وفي ذلك الحين، كانت في الفرقة الرابعة الجامعية، وتعرف الكثرة الكاثرة من زملائها في الدراسة أنها تمتلك مسكنا يضم حجرتين. وفي بعض الأحايين، تدعو بعض زملائها للالتقاء في حارة «فوما»، وأحيانا أهل وأصدقاء زملائها القادمين في مكان آخر يؤجرون مسكنا في هذه الحارة أيضا. وأم الطالب قوا هونغ، الذي يدرس معها في الفصل نفسه، جاءت إلى بكين للعلاج، وأقامت في بيت باي دا شنغ لمدة نصف شهر. وفيما بعد، تجاذب قوا هونغ أحاديث الهوى مع باي دا شنغ. وعائلة قواهونغ تقيم في مدينة داليان. وقد رأيت قواهونغ، ويمكن وصفه بكلمات باي دا شنغ أن: «ملامحه تشبه النجم السينمائي تشين داو منغ بصفة خاصة أو أخاه الصغير». وقواهونغ مقتضب في حديثه، وشديد الذكاء، وأشعر بأنه لا يحب باي دا شنغ اعتمادا على الحدس. ولكن كيف أستطيع أن أقنع باي دا شنغ بذلك، وهي تشبه الشيطان في تلك الفترة. وتستطيع أن تتذكر حماستها المفرطة في الحنين إلى التدريب العسكري، ولذا تستطيع أن تستغل قوة الانفجار التي تكمن في مشاعرها والتي تخوض بها مثل تلك التجربة في الحب.

(٤)

كانت باي دا شنغ تسألني دائما آنذاك: إذا تزوجت من رجل، فهل أنت تختارين الرجل الذي يجمع بينكما الحب المتبادل، أم تختارين الرجل الذي يحبك أكثر مما تحبينه، أم تختارين الرجل الذي تحبينه أكثر مما يحبك؟ طبعا، أنت بالتأكيد تختارين الحب المتبادل مع الرجل، وأنت وزوجك وانغ يونغ يجمعكما الحب المتبادل. وأجابت باي دا شنغ بالإنابة عني. وسألتها عن ماهية اختيارها، وقالت ربما يجب أن أختار الرجل الذي حبي له يفوق حبه بصورة أكثر.. وأكثر.. ولم تكمل كلامها. ولكن من هنا عرفت أنه منذ بداية قصة حبها الثاني وضعت لنفسها معيارا من الدرجات الدنيا، إنه معيار نسيان الذات، والتضحية بالغالي من أجل الآخرين، وجعل النفس تشعر بالحزن بعض الشيء. ويبدو أنها - منذ زمن بعيد - تتحلى بنوع من الشعور المسبق مفاده أن مشاعر الحب التي يكنها الرجال لها في هذه الدنيا لا تنافس إلى الأبد جنون الهوى لديها من تيممها بالرجال. والمشكلة أنني مازلت أفكر وأسأل نفسي بقسوة شديدة، أيوجد في العالم رجل يكن مشاعر حب حقيقية نحوها؟ إن الصداقة التي تربط بين قوا هونغ وباي دا شنغ هي رغبتهما في

تأكيد علاقة الحب بينهما، حتى يستطيع قوا هونغ المكوث في بكين بعد التخرج. وأدركت هذه الحقيقة منذ زمن بعيد، ولفت انتباهها وأخبرتها أن قوا هونغ يفتقر إلى بيت في بكين، فقالت عندما أتزوجه يصبح له بيت.

وربما قوا هونغ يريد - أصلا - أن يتزوج باي دا شنغ، فقد عاشا معا. وأصبح الاهتمام والقيام على خدمة قوا هونغ بمنزلة الغبطة الكبرى بالنسبة إليها، حيث تشتري له السجائر، وتغسل جواربه، وتجهز له الطعام، وتدعو كوكبة كبيرة من زملاء الدراسة للاحتفال بعيد ميلاده في حارة «فوما»، وذلك حتى يعرف الجميع أن حبها يتسم بالوعي ويسير على درب الزواج، كما تصطحب أفراد أسرة قوا هونغ عندما يزورون بكين، وتقدم لهم الأكل والإقامة، وتشتري لهم الأشياء من نقودها. وفي البداية، كانت تطلب بصفاقة النقود من الأسرة. وذات مرة تجرأت وأجبرت خالتها وزوجها على أن يبيعا مروحة كهربائية قديمة من أجل أن تشتري لابن شقيق قوا هونغ «كلبا». إنها تتحمل العناء الشديد حقا! ولكن عندما كان على أعتاب التخرج، تعرف فجأة إلى طالبة يابانية تدرس في المدرسة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يغشى حارة «فوما»، حيث يعتزم السفر إلى اليابان مع هذه الطالبة اليابانية، وقد أفشى هذا السر أحد أصدقائه. إنه رجل اعتمل في ذهنه فكرة أن تعوله امرأة. وما دام يستطيع السفر إلى اليابان، فلماذا مازال يمكث في بكين؟ ولا توجد ثمة ضرورة أن يبقى في بكين. إذن، لا حاجة إطلاقا إلى أن يتزوج باي دا شنغ.

وحتى يومنا هذا، لاتزال صورة باي دا شنغ وهي تبكي بحرقة أمامي ماثلة في ذهني، حيث تورمت عيناها، وشعرها منثور على وجهها، وتجلس الأربعاء فوق سريرها الكبير، وتصر على أسنانها (اكتشفت حالا أنها تعرف أن تصر على أسنانها ولم يكن ذلك في الحسبان). وتقول إنها ترغب فعلا في الانتقام من قوا هونغ وترغب أيضا في ألا تتركه يبقى في بكين، وتجعله يعود إلى بيته في شمال شرقي الصين! ثم رسمت طريقة وخطة الانتقام، وفي رأيي أنها مناورة صبيانية مضحكة تعوزها القوة. وتجشأ عندما يتطرق حديثها إلى المواضيع المؤثرة، إنه تجشؤ رنان، وحزين أيضا، مثل من عركته الحياة. وعلى كل حال، عندما كنت أشجعها أن تتخلص من هذا الجو الكئيب أيا كانت الأسباب، فإنها تلتزم الصمت. وتطرح نفسها على السرير بقوة، وتأخذ لحافا، ثم تغط في سبات عميق. ورأيت أمامي «جبل القطن» وجال بخاطري أن لحافا من القطن يكون أحيانا مانعا للكوارث حيث يستطيع مقاومة البرد الذي تتعرض له، ويتستر على انتقامها، ويهدئ من روعها، ويخفي آلامها وأحزانها. تتغطى باي دا شنغ باللحاف وتنخرط في النوم طوال يوم كامل، وبعد أن استيقظت من نومها لم تتذكر رغبتها في الانتقام من قوا هونغ مرة أخرى. وعندما أقابلها وألحّ في السؤال عليها. تقول: آه، إذا كنت قادرة على مجابهة الكوارث والأحداث المؤسفة التي شهدتها في الماضي. فهل يجرؤ قوا هونغ أن يتصرف بحماقة نحوها ؟ لا يجرؤ! إذا قلنا ذلك، يبدو أن تصرفاته تجاه باي دا شنغ هكذا واجبة ومبررة.

وتلقت باي دا شنغ توزيع العمل بعد التخرج في خضم التخلص من الآلام والمعاناة التي سببها قوا هونغ، وبدأت مشهدا آخر في حياتها في فندق كايلون. وهي تعمل بنشاط وجد، وتعامل الناس بإخلاص، ولم يطرأ عليها تغير عدا زيادة وزنها كيلو جرامين أثناء فترة تدريبها في المطعم الغربي (يعد التدريب في المطعم مقررا إلزاميا لكل العاملين في الفندق). ومازالت كما كانت في عهد الدراسة، ولم تفسدها سخرية المجاملات الزائفة وجو الفتور وعدم المبالاة في الفندق. وفي بعض الأحيان، يتسابق ويتزاحم عليها زملاء العمل، فهي إما لا تسمع إلى أصواتهم، وإما تضحك بصوت عال ولا تكترث بهم. وقد فازت بصديقة يحبها الجميع، وهي العاملة المناوبة في حجرة تبديل الملابس التي امتدحتها قائلة: فتيات الفندق كلهن حسناوات، وأنت أيضا أشعر بالارتياح عندما أنظر إليك. ونتبادل التحية جميعا ويسألن عن حالتي وصحتي، مما يجعل القلب يشعر بالدفء والاطمئنان. ولا نخشى أضحوكتك، حتى يومنا هذا تشعر زوجة ابني بالتعب الشديد عندما تناديني بلقب الأم، آه، يا باي دا شنغ، ماذا دهاك اليوم تلفين المنديل الحريري أسفل ياقة القميص، أليس منديل الحرير يجب أن يربط حول العنق؟.. عاملة حجرة تبديل الملابس لا تعتبر باي دا شنغ غريبة عن الفندق، وتصطحبها بانسجام وتفرغ كل ما في جعبتها من كلام.

وبعد فترة من الوقت، بدأت باي دا شنغ تتجاذب أحاديث الهوى مرة أخرى. وحبيبها – في هذه المرة – يدعى قوان بنغ يو، يعمل

في قسم غرف الضيوف في فندق كايلون، وأصغر من باي دا شنغ بعام، وقامته مثل باي دا شنغ تقريبا. وتعرفا أثناء التدريب في حفلة عيد الميلاد، فصوت قوان بنغ يو رخيم وجميل عندما يصدح بأغنية «نهر اليانجتسي»، وبرنامج باي دا شنغ هو الأغنية الشعبية «العودة إلى بيت الأم». وهذه الأغنية تصدح بها باي دا شنغ باقتدار عندما كانت تدرس في الجامعة. كما تتمتع بميزة خاصة وهي عدم الرهبة من منصة الغناء، ويرتبط ذلك بصلة قوية بعملها رئيسة قسم الإعلام في اتحاد الطلاب. ولكن في عملية التدريب والتجربة على الغناء تظهر فقط بعض المساوئ، على سبيل المثال، عندما تغني وتصل إلى المقطع الغنائي: «دجاجة في اليد اليسرى، والبطة في اليد اليمنى، وأحتضن ضفدعا سمينا أيضا»، يجب عليها أن تمد يدها اليسرى أولا، ثم يدها اليمنى، ولكنها تمد دائما يدها اليمنى أولا، ثم يدها اليسرى بعد ذلك. وعلى الرغم من أن ذلك ليس نقيصة كبيرة، ولكن تجعل المرء يشعر بالضيق، وفي ذلك الحين، يندفع إليها بهدوء قوان نيغ يو الجالس أسفل المنصة ويلوح بيده، وينبهها قائلا: «اليد اليسرى أولا، اليد اليسرى أولا». ترى باي دا شنغ إشارته، كما تسمع تنبيهه، وتصرفاته القليلة يحرك في قلبها مشاعر يعجز القلم عن وصفها، إنها مشاعر الاطمئنان وراحة البال مثل من يتمتع بالقوة، ويستند إلى الجبل، وتنصاع لإشارة قوان بنغ يو، وتمد «يدها اليسرى أولا». وبعد ذلك، وعندما يحين وقت التدريب على الغناء، وقبل أن تصل إلى المقطع الغنائي: «دجاجة في اليد اليسرى» تحول نظراتها مسبقا إلى قوان بنغ

يــو الجالس أسـفل المنصة، إنها نظرات تحمــل في طياتها بعض الإيمــاءات، كما تتســم ببعض الــدلال والنعومة. إنهــا تومئ إلى قوان بنـغ يو ولسان حالها يردد: إياك أن تنسى الإشارة، وتقول: ارتكــب الخطــأ حــالا، لا تنســى بالتأكيـد، نبهنـي مــن فضلك. وعند لحظة مد اليد، فإنها - فعلا - تستطيع بسلاسة أن تمد «اليــد اليســرى أولا»، ولكنها تتظاهر بالتــردد، كما أنها تتصنع بأنهــا لا تعرف كيفية مــد يدها. وفي الحقيقة، يشــعر قوان بنغ يو بالقلق، ويقفز نحوها ويمد يدها اليسرى. وتحب باي دا شنـغ أن تــراه في حالة القلق، وذلك القلق ليس من أجل الآخرين، بل إنه قلق من أجل باي دا شنـغ على وجه الخصوص. وكادت باي دا شنـغ تطير فرحا، وأن فن «المغازلة» لديها يمكن أن نقول إنه وصل إلــى مدى قصيــر، ويتوقف عند هذا الحد، ولـم تعد في جعبتها حركات خداعية أخرى.

ويختلــف قوان بنغ يو عن قوا هونـغ، فهو رجل يحب بالفطرة الاســتقرار والمعيشــة الطيبة، ويهتــم بأحدث الموضة فــي الأزياء الحريمــي، وإجادة المــرأة في حبــك الكنزة، وقدرتهــا على العزف على البيانو، وأيضا ترتيب السرير، وعندما ذهب مع باي دا شنـغ إلى حــارة «فوما» للمرة الأولى، اســتعرض أمامها مهارته الفنية المتخصصة في قسم غرف الضيوف من ترتيب السرير وجعله في حالتــه الفندقيــة المميزة من «ثني أحد أطــراف اللحاف». ويبدو أنه انطلاقا من عدم كراهيته لوظيفته العادية، تأصل داخله نوع من الهواية الوظيفية حيث أينما يرَ سريرا يُرِد ترتيبه و«تجهيزه» على النحو المذكور سابقا. ويوصي باي دا شنـغ أن تحضر له طقم

مـن ملاءة السـرير والمفارش، وتقف عند أقدام السـرير وتمسـك يـداه طرفي الملاءة ويفردها، ويسـوي بيده تموجـات الملاءة التي تشبه الأمواج بقوة، وفي طرفة عين يهدأ ويسترخي على السرير مستقيما. ثم ينفض الوسادة بدلا من باي دا شنغ ويطلب منها أن تجلس على حافة السرير حتى يجعلها تتذوق مهارته وحلاوة عملـه. وفـي هذه اللحظـة، الاثنان: قـوان بنغ يو، وباي دا شـنغ فـوق الفـراش ولا يدري أحد ماذا فـي مقدورهما فعله؟! ويجعل ذلـك المرء يشـعر بأن الذي يرتب السـرير يبتعد عنـه دائما مثل بنّاء الحجرة ينأى بعيدا عنها. وأدركت باي دا شـنغ من ملامحه السذاجة والهدوء بعد العمل الشاق، ولا توجد رغبة.

واسـتمرت اللقاءات بينهما. والفندق يصفي مجموعة كبيرة مـن الأثاث ويبيعه بأسـعار زهيـدة للعاملين، وثلاثـة أطقم من الأرائـك تبـاع فقـط بمائة وعشـرين يوانـا. وتبتاع باي دا شـنغ أشـياء ليسـت قليلة مـن الأريكة، والسـجاد، والفـرن الكهربائي الميكرويـف إلـى المصباح العمـودي، وخزانـة الشـراب الصغيرة، والمكتـب، ويسـاعدها قوان بنغ يـو في ترتيب وتزيـين البيت من جديـد. وتذكـرت باي دا شـنغ أن قوان بنغ يـو يحب العزف على البيانـو وتصـر علـى أسـنانها وتنفق خمسـمائة يوان وتشـتري بيانـو الفنـدق القديم (بالإضافة إلى كرسـي البيانـو). وباي دا شـنغ تقتـرض النقود من أبويها، فقد انقضـى زمن بيع المروحة الكهربائية القديمة. وهي ليسـت غنية، ولكن لا تشـعر بأنها في حاجـة إلـى نقـود. وأقامت حفلة عيـد الميلاد لقـوان بنغ يو في الحجـرة الجديـدة التـي تم ترتيبها. وهـذه المـرة أصبحت أكثر

حذرا بشكل أكبر، ولم توجه الدعوة لحضور حفلة عيد الميلاد إلى عدد كبير كما فعلت في عيد ميلاد قوا هونغ. بل هذه المرة لم تدع أحدا. وشارك في الحفلة اثنان فقط هما: باي دا شنغ، وقوان بنغ يو. وطلبت من المطعم الغربي في الفندق الكعكة الإسفنجية (كاتو) التي يطلق عليها «الغابة السوداء». كما اشترت زجاجة شراب وسعرها معتدل. وفي مساء ذلك اليوم، يأكلان الكاتو، ويحتسيان الشراب. كما عزف قوان بنغ يو على البيانو برهة. وأثناء عزفه، وقفت باي دا شنغ على مقربة منه وتنظر إلى جانبه. وهي قريبة جدا منه، وتكاد أذنه تلمس صدر سترتها. وتتورد أذنها مثل الأرنب. وأخبرتني باي دا شنغ - فيما بعد - أنها كانت ترغب كثيرا في عض أذنه آنذاك. يواصل قوان بنغ يو عزفه على البيانو، ولكنه لا يدري ما يعزف بالضبط، حيث يوجد بجواره كتلة من الأنفاس الحارة تربك تفكيره، ولا يعرف هل ينظر إلى مفاتيح البيانو أم يجب عليه أن يستدير رأسه نحو تلك الأنفاس الملتهبة، ثم يلتفت إلى باي دا شنغ. وأثناء التفاته لا يدري ما أصابه وتستند رأسه وأذنه المتوردة على صدر باي دا شنغ برفق. وكان ذلك وضعا جعلها لا تتخذ الاحتراس، وربما ترغب في أن تضم رأسه إليها. ولكن ارتخت ركبتاها وجعلت جسمها ينزلق إلى أسفل وتركع على الأرض. وبمقارنة جسمها الجاثم على الأرض، وقوان بنغ يو الجالس على كرسي البيانو، تبدو ضخمة وسمينة. وعلى كل حال، هذا المنظر يجعل قامتها تبدو أقصر منه. وترفع رأسها نحوه ولسان حالها يظهر القبول. ويحني جسمه نحوها ويقبلها. وتضم بيدها رقبته غير الغليظة

إليها. ولكنه يبدو مرتبكا إلى حد ما. ومن المحتمل جدا أنه شعر بالندم توا جراء التفاته المهلك نحوها. كما يبدو أنه كان غير مشغول حتى قرر هذه الالتفاتة. كما تظهر هذه الالتفاتة أنها جعلته يدرك أن باي دا شنغ التي أمام عينه ضخمة هكذا فعلا، ضخمة إلى درجة أنه لا يستطيع السيطرة عليها. أو ربما شعر بالضآلة والنقص بسبب قامته وشعوره بالدناءة بسبب مؤهله الدراسي، أليس كذلك؟ وباي دا شنغ حاصلة على مؤهل عال، فقد تخرجت في معهد السياحة. وربما هذه الأسباب ليست كلها جعلته - في نهاية المطاف - لا يقر بأنه يحب باي دا شنغ. وأخيرا، ينزع نفسه من بين ذراعي باي دا شنغ ويجلس بجوار الطاولة، وتعود باي دا شنغ إلى مقعدها بجوار الطاولة أيضا، وتبرز ملامحها مظاهر الإعياء الشديد.

تقول باي دا شنغ على غرة: إذا عشنا معا، أقوم بتغيير خزان فحم الغاز بالتأكيد.

ويقول قوان بنغ يو: إذا كتب لنا الحياة معا، أقوم بتغيير اللمبة بكل تأكيد.

وتقول: إذا عشنا معا، لا أجعلك تضطلع بأي عمل.

ويقول: أنت رفيقة الحاشية فعلا، وأدرك ذلك منذ زمن بعيد.

ويعد كلامه حقيقة، ويدرك أنه ليس كل رجل يستطيع ملاقاة مثل طيبة القلب. ويقبلها مرة أخرى لأنه اكتشف أنها تتمتع بقلب طيب حنون. وبعد ذلك، يودع كل منهما الآخر بهدوء وسرور.

ومازال حديثهما لم يتناول زواجهما، ولكن أدرك كل منهما ما

يجول في ذهن الآخر، وزملاء باي دا شنغ في العمل يسألونها، فتضحك ولا تجيب. وفي نهاية المطاف، اكتسبت باي دا شنغ خبرة قليلة، وتصبر على مضض وتكيف نفسها على السعادة كما تراها. وإذا لم تحضر إلى بكين (شياو فين) ابنة خالنا، أظن أنهما يستطيعان الزواج. ولكنت شياو فين جاءت إلى بكين.

وشياو فين هي ابنة خالنا وتقيم في مدينة تايوان، ولم تجتز امتحان الالتحاق بالجامعة لمدة ثلاث سنوات على التوالي، وقدحت زناد ذهنها عن فكرة السفر إلى بكين لتتمرس وتشق طريقها في الحياة. وكان حلمها المثالي أن تكون مصممة أزياء مشهورة، ومن ثم اختارت مدرسة في بكين لا تطلب شهادات، وغير مسؤولة عن المأكل والمسكن، كما لا تتحمل مسؤولية التوزيع للحصول على عمل. وأنفقت المال والتحقت بهذه المدرسة، وجاءت إلى حارة «فوما»، وتريد الإقامة مع باي دا شنغ، وشياو فين تؤازر الحق وجريئة، ولا تهاب دون أن تترك فرصة للتبرير.

(٥)

لم تزر شياو فين بكين. ولكن لا تهاب أن تغشى أي مكان، وتنشأ بينها وبين الآخرين ألفة عند التعامل والمعاشرة. وهي - في المقام الأول - لا تشعر بالخجل البتة وأصبحت حارة «فوما» مثل بيتها تماما، حيث فتحت خزانة ملابس باي دا شنغ، وجرجرت العمود الذي تعلق عليه باي ملابسها ويصدر صوتا وتحركه جانبا، ثم تعلق مجموعة كبيرة من «الأزياء» التي جلبتها معها. كما ألقت نظرة فاحصة إلى المكتب، ودفعت في إحدى زوايا الطاولة عدة إطارات تحمل صور باي دا شنغ كانت وضعتها فوق المكتب، ثم تضع بضعة إطارات مرصعة باليشم وتحمل صورتها في زاوية أخرى مختلفة، ومن بينها صورة ملونة بحجم أربعة وعشرين تسون (تسون = ثلث متر) على غرار طريقة فن التصوير في بناية بنغ، علقتها قبالة الباب وجها لوجه حتى تجعل الجميع بمجرد أن يدخل بيت باي دا شنغ ينظر أولا إلى شياو فين في ظلال الأضواء الخافتة. وأخيرا، فكرت في مشكلة السرير، وترى أن الحجرة يوجد بها سرير كبير فقط، وتخبر باي دا شنغ أن نومها يتسم بنقيصتين، حيث تحب النوم على سرير كبير، والسرير الضيق يجعلها تسقط على الأرض. وطلبت من

باي دا شنغ أن تعطيها السرير الكبير، وتبحث عن سرير طواء لنفسها. وباي دا شنغ ليس عندها سرير طواء فتضطر إلى شرائه من الدكان. وتبقى مشكلة الأكل، وقامت شياو فين بترتيب ذلك على النحو التالي: حلت بنفسها مشكلة طعام الإفطار، والعشاء يقوم بإعداده من يعود إلى البيت أولا (ترجع شياوفين إلى البيت دائما متأخرة عن باي دا شنغ)، أما الغداء فقد قالت شياو فين إنها تتناول طعام الغداء مع باي دا شنغ في فندق كايلون، وقالت إنها تعرف أن باي دا شنغ وأترابها يتناولون الغداء مجانا. وتشعر باي دا شنغ بالحرج إزاء ذلك، على الرغم من أن شياو فين ليست عاملة في الفندق، إنها مشكلة مؤرقة، وتقوم شياو فين بإخبار باي دا شنغ وتقول نحن لا نريد وجبتين، نأكل معا وجبة الطعام المخصصة لك وستكفي، ألا تشعرين بأنه يجب عليك إنقاص وزنك، وعدم التخسيس يجعلني أفتقد الإلهام عندما أقوم بتصميم ملابسك. تشعر باي دا شنغ بأنها لا تعتبر سمينة، ولكن لا تقول إن قوامها رشيق، وتتذكر في هذه اللحظة قوان بنغ يو الأكثر نحافة منها، وتقدم تنازلات لها. والمرأة تقوم بالتخسيس حتى تسعد نفسها. وباي دا شنغ تريد التخسيس، وأصبح من المؤكد أن شياو فين تتناول الغداء في فندق كايلون مع باي دا شنغ. وفي الواقع، أنها تأكل أكثر من نصف الوجبة، وتشعر باي دا شنغ بالجوع قبل الانصراف من العمل بعد الظهر، وتأكل البسكويت في المكتب.

تناول الغداء في فندق كايلون وسع آفاق رؤية شياو فين، حيث تعرفت إلى جميع زملاء باي دا شنغ في العمل، وسجلت أرقام

هواتفهم وأرقام جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية (BP) وفيما بعد، أصبحت مألوفة لديهم أكثر من باي دا شنغ التي تحملها على ظهرها وتذهب إلى صالة التجميل بالفندق من أجل قص شعرها وتجميل وجهها (طبعا مجانا). وتطلب من الأصدقاء في قسم غرف الضيوف الغسيل الجاف لمعطفها وسترتها الصوفية. وزميل باي دافنغ في قسم المبيعات لديه سيارة ركاب ماركة «فوكانغ» (السعادة والصحة). ولم يكن في الحسبان أن يقود سيارته ويدلف صباح كل يوم إلى حارة «فوما» ويستقبل شياو فين ويرسلها إلى مدرسة الأزياء ويقول إن الطريق أقصر ومباشر. وعلى هذا النحو، وفرت شياو فين مصاريف ركوب حافلة متوسطة الحجم. وتمتعت بكل هذه التسهيلات وهي تشعر بالارتياح والطمأنينة. وطبعا، لا تغفل الشكر والامتنان إلى الذين منحوها تلك التسهيلات. واعتادت أن تربت على أفخاذهم تعبيرا عن شكرها، ثم تقول: «أنت ظريف حقا!» ويخفق قلب الرجال ويرتعدون جراء هذا السلوك. كما أن الجملة التي تتفوه بها ذات المغزى الكامن: «أنه ظريف حقا!» جعلهم يشعرون بالغبطة عند استعادة الذكريات، ولكن لا يتجاسرون إطلاقا على مداعبتها بالطريقة نفسها. إن الربت على أفخاذ الرجال سواء أثار عواطفهم أو لا، يعد سلوكا غير مهذب. ولكن ما تبديه من ملامح لا يمكن ببساطة حمله على أنها يعوزها التهذيب، إن قامتها الرشيقة الأنيقة التي تبلغ مترا وخمسة وخمسين سنتيمترا، ورأسها الصغير، وشعرها المقصوص على موضة «شانغ هان» (الموضة المحمومة)، ويداها الصغيرتان اللتان تتسمان بالنعومة والقوة، كل ذلك يمنح المرء

شعورا يتأرجح بين المرأة والطفل، من الخشونة والتدليل، والنوايا العميقة وعدم الدراية بالشؤون الحياتية تندفع إلى حارة «فوما» مثل ريح دوامية وبحذر شديد، لقد قلبت حياة باي دا شنغ رأسا على عقب، وخطفت من أحضانها حبيبها قوان بنغ يو في نهاية المطاف.

وحدث ذلك في ذات يوم بعد الظهر، حيث قابلت باي دا شنغ زبون الشركة الأمريكية فورد في فندق القوميات. وبعد ذلك، لم ترجع إلى عملها وعادت إلى حارة «فوما» القريبة من الفندق يومذاك. وكان هذا اللقاء سهلا ومريحا. ووافق الزبون الأمريكي، وهو رجل طاعن في السن ووجهه أحمر، على إبرام عقد مع فندق كايلون يستأجر بمقتضاه غرفة لمدة عام في الفندق تكون المكتب التمثيلي للشركة. ويدل ذلك على أن باي دا شنغ تحصل على اثنين في الألف من قيمة الإيجار. وارتأت في ذلك اليوم أنه لا داعي أن ترجع إلى عملها، ويجب فعلا أن تعود إلى البيت وتحتفل بهذا العمل المبهج. ترجع أدراجها وتفتح الباب، وترى شياو فين وقوان بنغ يو ممددين فوق سريرها الكبير.

لا يمكن أن نصف شياو فين وقوان بنغ يو انطلاقا من الحياة البوهيمية. وإذا كانت حياة المجون فعلا، فأوضاعهما تتحلى بالاحتمالات الأخرى، وتكمن المشكلة في أن شياو فين لا ترغب في اللهو والمجون مع قوان بنغ يو، كما يشعر قوان بنغ يو بأنه يجب أن يتزوج من حبيبته الأصلية شياو فين، والاحتمال البديهي أن قوان بنغ يو زوج باي دا شنغ أصبح زوج ابنة خال باي دا شنغ في أقل من شهرين.

تقلب باي دا شنغ الأمر في ذهنها، ولا تبغض قوان بنغ يو على غرار مقتها لقوا هونغ على هذا النحو. وما يمزق نياط قلبها ويحز في نفسها أن علاقاتها مع قوان بنغ يو استمرت عاما ونيفا، ولم يتطرق تفكيرهما إلى المضاجعة في الفراش، إن قوان بنغ يو التقى شياو فين مرات قليلة، ثم يجمعهما الفراش. إنه سريرها، آه، سرير باي دا شنغ.

تغادر شياو فين حارة «فوما»، ولم تنبس بكلمة اعتذار لباي دا شنغ، تركت لها فقط قميصا مستديرا من تصميمها، ولكن نسيت أن تدرز عرى القميص. وعلى العكس، شعر قوان بنغ يو بالذنب نحو باي دا شنغ، وذات يوم يطلب مفتاح البيت في تلك الحارة من شياو فين - ليس هناك متسع من الوقت - لم تحصل باي دا شنغ على المفتاح بعد - وينتهز فرصة وجود باي دا شنغ في العمل، ويصطحب بعض الأفراد لينقلوا سريرها القديم، ويشتري لها سريرا مزدوجا جديدا، فضلا عن ملاءة السرير، والوسادة، وغيرهما من مفارش السرير. ويرتب لها السرير بضمير يصل إلى الحرص الشديد بنسبة مائة في المائة ويفوق ترتيبه لسرير الزوجية مع شياو فين بشكل أكبر. وجعل ملاءة السرير لا تظهر ثمة ثنيات ولا ذرة غبار في وزرة السرير. ويواصل تجهيز السرير من أجلها كما يفعل في الفندق يوميا، ويرتب الوسادة، ويرفع - حسب الأصول الفندقية وعلى امتداد جانب الوسادة - أحد أطراف البطانية الخفيفة التي تغطي ملاءة السرير، كما يضع في الطرف المثني للحاف زهرة القرنفل الصيني العطري ذات اللون الأصفر الفاتح. كأنما يريد أن يجعل

باي دا شنغ تنسى ما حدث فوق هذا الفراش ويعكر صفو المزاج، كما يبدو أنه يدعو لها بالخير وتبدأ أياما جديدة.

تنصرف باي دا شنغ من العمل وتعود إلى البيت وترى السرير الجديد وكل مفارشه، ويجسد ذلك مهارة وفن قوان بنغ يو ومشاعره الودية، كما أنه أسلوب فريد للاعتذار من جانب ذلك الرجل. تجلس باي دا شنغ فوق السرير الطواء ويسرح نظرها في الأفق ولسان حالها يقول إن السرير الجديد كتلة من الآلام والأحزان، لأنها في الواقع تشتاق إلى ذلك السرير القديم الذي طلب قوان بنغ يو من الآخرين أن ينقلوه، إنه السرير الذي سبب لها جرحا غائرا في نفسها. وتمنت لو تستطيع استعادة السرير القديم، حتى لو كانت وحيدة كل ليلة. أما الجزء الآخر الذي كانت شياو فين تنام فيه فيمكن أن تغطيه ولا تفكر فيها. والحزن الذي كان تشعر به في قلبها وجسدها فوق السرير القديم، هو بالتأكيد الحزن المؤلم المتجذر في أعماقها، إنه الحزن على الأيام التي قضتها مع قوان بنغ يو. والسرير الجديد الماثل أمام عينيها غير ذي قيمة، إنه عبارة عن كومة من الخشب تفتقر إلى الماضي.

والسرير الجديد الذي اشتراه قوان بنغ يو جلب الكثير والكثير من الكآبة والحزن لحارة «فوما»، وعلى سبيل المثال، هذا الرجل الذي اختمرت في ذهنه منذ أمد بعيد فكرة أن ينأى بعيدا عن الفتاة التي تحبه. وقبل الوداع، يصمم – من أجلها – أن يمسح الطاولة، ويمسح الباركيه، ويعدل إطار الصورة على الحائط حتى يصبح مستقيما، ويصلح صنبور المياه. ويعد ذلك نوعا من الاهتمام الشديد الأكثر قوة في هذا العالم. والفتاة إما تصبح

يائسة في خضم مثل هذا الاهتمام الشديد، وإما تدرك الحقيقة فجأة انطلاقا من ذلك الاهتمام.

ويبدو أن ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ كئيبة قليلا، ولكنها لا تتحدث عن إدراكها مثل هذه الحقيقة على غرة، واكتفت بألا تنام على السرير الجديد فترة طويلة. وكنت أول من نام عليه. وفي تلك المرة، حضرت إلى بكين للمشاركة في اجتماع مناقشة كتب الشباب والأطفال وقضيت ليلة في حارة «فوما». ومددت جسمي على السرير الجديد لباي دا شنغ التي طرحت جسمها على السرير الطواء، ووجهها صوب سقف الحجرة وسردت قصة شياو فين وقوان بنغ يو. وقالت إن شياو فين لم تذهب إلى مدرسة الأزياء بعد زواجها من قوان بنغ يو، وليس لديهما بيت وأقاما مع أبوي قوان بنغ يو. وأسرة قوان تقطن في وحدة سكنية بالية في أحد المباني، وفتحت شياو فين دكانا للملابس تطل أبوابه على الشارع، وتجارتها رابحة جدا. وأردفت أنها لم تشارك في حفلة زواجهما، وأقسمت – يومذاك – بعد انصرافها من العمل والعودة إلى بيتها يوميا إنها لا تعرهما أي اهتمام طوال حياتها. وأبدى باي دا منغ تأييده لها ولا تربطه بهما علاقة. وعلى كل حال، عندما اقترب موعد زفافهما أرسلت لهما هدية عبارة عن خزانة تعقيم السلطانيات قام المكلف بالغرف للضيوف في الفندق بتسليمها لقوان بنغ يو. وأضافت باي دا شنغ أن قوان أرسل إليها كيس حلويات السعادة تسلمته من هذا المكلف أيضا. وقالت خمني أين وضعت هذا الكيس، فقلت بالتأكيد لم تأكليه. وتشير إلى سقف الحجرة وتخبرني أنها وقفت في الفناء ورمته فوق سقف الحجرة.

وغمضت عيني، وأفكر في سقف الحجرة المكسو بالقرميد الرمادي وفوقه العشب الجاف، فوجدت السقف مازال على حاله، ولكن القطة الصفراء نيونيو، والقط الذكر الأصفر شياو شيونغ قد اختفيا منذ زمن مبكر، وإلا كانت حلويات السعادة جلبت لهما فرصة عظيمة بالتأكيد. وأخيرا، تلقي باي دا شنغ باللائمة على نفسها، وتقول غلطتي أنا، حذري ضئيل، وحدث ذلك لأنني لست حذرة... فقلت: وما علاقة ذلك إذا كنت حذرة أو لا؟ فقالت: على كل حال، ما الذي له علاقة بذلك؟

لم أقدم إجابة عن سؤالها، ثم دعوتها إلى مشاهدة فيلم سينمائي. وفي تلك المرة، شاهدنا الفيلم الأمريكي «عالم الجمال المطلق» الذي لم يعرض أمام الجمهور، وكنت حصلت على تذاكر السينما من اجتماع المناقشة. وعند مشاهدة الفيلم انخرطنا في البكاء، وعلى الرغم من كبح جماع الدموع، بيد أنها انسالت وغمرت وجوهنا، وبذلنا قصارى جهدنا حتى نكتم صوت البكاء ولا نجهش بالبكاء كما كنا عند مشاهدة فيلم «فتاة تبيع الزهور» في الماضي. وتجشأ باي دا شنغ بالمصادفة في صوت خفيض ناعم، وأنا الوحيدة القريبة منها القادرة على ملاحظة تجشئها. وقصة الفيلم، التي تدور حول الأطفال الذين اقترفوا الآثام وكانوا كرهائن تحولوا من الخوف والرعب والكراهية إلى التقارب والتآلف، جعلت باي دا شنغ متأثرة للغاية، وحكت قصة الفيلم لزملائها في قسم المبيعات أربع مرات. وتلقيت منها مكالمة هاتفية طويلة بعد أن رجعت إلى المدينة «B». وقالت إنها لم تشعر قط بأنها تحب الأطفال بحماسة هكذا إلا بعد أن شاهدت

هـذا الفيلـم. وكانت هذه المـرة الأولى التي عرفـت فيها إعجابها بوظيفتي، وسـألتني إذا كان هناك احتمـال أن تنتقل للعمل في دار الأطفـال للنشـر اعتمـادا علـى علاقتي، فقد بـدأت التفكير مليـا في تغيير وظيفتها وأسـديت لها النصـح بألا تكون متوترة الأعصاب، والعمل في دار النشـر ليس سـهلا وسلسا، وفيما بعد، لم تصر على تبديل عملها مرة أخرى، وذلك ليس لأنها انصاعت لنصيحتي، بل لأنها - فيما يبدو - بدأت الحب من جديد.

(٦)

باي دا شنغ تعرفت إلى «شياشين» في حارة «فوما»، عندما كان يقود دراجته وعند الانعطاف صدمها وهي تترجل في الطريق. ولم يكن الصدام قويا، ونجم عنه كشط طبقة رقيقة من الجلد في قدمها، واعتذر لها بكل ما يملك من قوة، كما أخرج من جيبه لصقة الجرح وأصر على أن يلصقها على قدمها الصغيرة بنفسه. وفيما بعد، سمعت باي دا شنغ أنه قال في ذاك اليوم إنه كان يعتزم الذهاب إلى الدار الرباعية الشرقية رقم «٣» لتقصي أحوالها، لأن صاحبها مستر جيان يريد تأجير غرفة البواب ومساحتها ثمانية أمتار مربعة. وكان شياشين لديه نية ويبغي استئجارها أصلا، ويأمل أن يخفض مستر جيان الإيجار، ولكنه لم يقدم أي تنازلات، ولذا صرف النظر عن استئجارها.

ويعتقد شياشين أنه يتحلى بالمواهب والقدرات، ولكنه من قليلي الحظ في ذاك الزمان، والفرص السانحة في المجتمع يستولي عليها الآخرون. وتخرج في الجامعة الاجتماعية، ومنذ أكثر من عام شارك آخرين في تأسيس شركة، وأدار ثماني أو تسع شركات، كما أدار استديو للصور الملونة، بالإضافة إلى المتاجرة في البنسيلين. ولم تدم هذه الأعمال التجارية طويلا،

ولم يحقق مكاسب منها أيضا، وساءت علاقته مع أبويه، ويفكر جديا في مغادرة البيت والانتقال إلى مكان آخر. وطلب من باي دا شنغ أن تساعده في البحث عن بيت إيجاره معقول، وذكر أنه لا يفكر في رؤية أبويه أبدا طوال اليوم. وقدمت له باي دا شنغ معلومات كثيرة عن تأجير الشقق، وذهبت معه مرتين لفحص أحوال الشقق. وبعد معاينة الشقة، يريد أن يدعوها إلى تناول الطعام. ولكنها قالت: أنا أدعوك، وأنت تدعوني عندما تصبح ثريا في المستقبل.

باي دا شنغ تقود شياشين وتدخل حارة «فوما». ومنذ ذلك الحين فصاعدا، يتناول شياشين الطعام في بيت باي دا شنغ في فترات متفاوتة. يأكل ويتحدث إلى باي دا شنغ عن بعض خططه، خطة البيزنس، خطة تحقيق الثراء، خطته في افتتاح مصنع كيماوي في محافظة ما بمقاطعة معينة المتاخمة لمدينة بكين ويشاركه اثنين من زملاء الدراسة. وتطرأ تغيرات على خططه، ولكن باي دا شنغ تثق به بعمق ولا تراودها الشكوك نحوه. وذكر أنه يحتاج إلى المال لتأسيس المصنع الكيماوي. وترغب باي دا شنغ في أن تقرضه من مدخراتها عشرة آلاف يوان وتكمل عجزه المالي. ولكن - فيما بعد - لا يحتاج شياشين إلى نقودها لأنه لا يرغب على حين غرة في إقامة هذا المصنع.

وأشعر بالاشمئزاز الشديد تجاه العلاقة بين باي دا شنغ وشياشين. ولا أحب شابا يقيم في بيت فتاة بريئة يأكل ويشرب مجانا، فضلا عن أنه «يعيش مجانا» بصورة كاملة. وقلت لباي دا شنغ إن شياشين لا يستحق أن تضيعي وقتك معه سدى،

وقالت إنها تفهمه أكثر مني، ولا أنظر إليه بأنه صفر اليدين الآن، وأنها تحب موهبته. آه، لم أتوقع أنه يتحلى بالموهبة، ولم يكن في الحسبان، أن باي دا شنغ تقع في «غرامه». وطلبت منها أن تضرب مثالا أو مثالين لإظهار موهبته، وتفكر قليلا ثم تقول إن رد الفعل لديه سريع جدا، ويجيد الإمساك بالذباب بيديه. وقلت لها أنتما الآن، ما ماهية العلاقة التي بينكما؟ فقالت إن حديثهما لم يتطرق إلى هذا الموضوع، وشياشين شريف جدا، وذات يوم في المساء استمرت الدردشة بيننا إلى منتصف الليل، ولم يعد شياشين إلى بيته، ونامت باي دا شنغ على السرير الكبير داخل الحجرة، أما شياشين فقد نام على السرير الطواء خارج الحجرة، وقضينا ليلة يسودها التفاهم المتبادل، ولم تشهد ما يعكر الصفو من المحرمات.

ويمكن القول إن مثل تلك العلاقة الشريفة بينهما صافية مثل البلون، كما أنها تتأرجح بين الموت والحياة، هل هي صداقة خالصة بين رجل وامرأة، أم الأخوة التي تجمع بين صديقين؟ وربما باي دا شنغ لا تعرف استنتاج هذا التحليل طوال حياتها. وأنها تتوق إلى أن تظفر بحب الرجل الذي يحبها. ولا شك في أنها وقعت في هوى شياشين، ولكن لا تعرف أسلوب التعامل معه. والدروس المستقاة من تجربتها مع كل من قوا هونغ، وقوان بنغ يو ماثلة أمام عينيها، فضلا عن تحذيري لهما دون مداراة أو مواربة إذا كانت تريد أن تختفي وتنأى عن الأنظار، فمن المحتمل جدا أن تتظاهر بصورة زائفة وتتكلف التحفظ. وحذرت نفسها قائلة: يجب التروي والبطء قليلا بصورة لطيفة ومهذبة، كما

قامت بإرشاد نفسها أيضا قائلة: يجب أن أكون رصينة ومتزنة أيا كانت الأسباب، ولا أكون عجولة، كما تتوق أيضا لأن تكون مثل الفتاة التي تجذب الناس وتقوم بتجميل نفسها مثل الجاذبية والنعومة عند شياوفين، والتدليل والدلال عند فتاة شيدان شياو ليو. وما يثير الأسف أن الدمج بين النظرية والتطبيق يكون في أكثر الأوقات غير مناسب دائما. وعندما تريد أن تكون بطيئة ومتردية تصبح أسرع من ذي قبل، وعندما تنوي التظاهر بالرزانة، تشد أذنيها وتحك خديها بصورة أكثر من قبل، وعندما تتمص حاجبها وتتزين وتتجمل وتنظر في المرآة تجد نفسها قبيحة أكثر من قبل ألف مرة. تضحك بـ «نعومة» تجاه المرآة، ومثل هذه «النعومة» لم تزدد مع الأيام لدى باي دا شنغ، بل هي «نعومة» تبدو مباغتة ومتكلفة، ثم ترتعد أوصالها جراء تلك النعومة الفجائية.

وفي طرفة عين، انقضى أكثر من نصف عام على التعارف بين باي دا شنغ وشياشين. وأقامت حفلة عيد ميلاد لشياشين في حارة «فوما» كما فعلت من قبل مع كل من قواهونغ، وقوان بنغ يو. وباي دا شنغ من السهل جدا أن تنسى، كما تبدو عنيدة بعض الشيء. ومن يوضح لماذا تصر على انتهاج الأسلوب نفسه في محاولتها تعميق علاقاتها مع الرجال؟ وهذه المرة – على غرار المرتين السابقتين – هي التي طلبت إقامة حفلة عيد الميلاد لشياشين. ودور شياشين يقتصر على الموافقة، إنه وافق وقال لها «أنت رائعة حقا». وهذه الجملة: «أنت رائعة حقا» جعلتها تشعر بقوة أن كل شيء في ذاك المساء يتسم

بالأهمية القصوى. وفي الخفاء رسمت صورة لنفسها من صفاتها الهدوء والرصانة، وإدراك ماهية الأمور، ولا للذل، ولا للغطرسة. ولكن عندما أوشكت الأحداث على الوقوع، كانت أكثر ارتباكا وحيرة من قبل، ولا تعرف أين تقف أقدامها، وحل الدخيل محل الأصل. ولا يوجد مقياس لكون هذه الجملة المؤلفة من ثلاث كلمات: «أنت رائعة حقا» تسبب ارتباك تصرفاتها. وكان ذلك في يوم السبت، وقضت اليوم كله في اختيار الملابس التي ترتديها في هذه الأمسية. وفتشت وبحثت في الصناديق وخزانة الملابس، وتقارن بين ألوان الملابس وتنسيقها. وارتأت أنها إذا ارتدت ثيابا جديدة، ستشعر بأنها متصنعة، وإذا ارتدت الملابس القديمة ستشعر بأنها لا ترفع روحها المعنوية، وإذا ارتدت الألوان الهادئة تخشى أن تبدو في عين شياشين طاعنة في السن، وإذا ارتدت الألوان الصاخبة تخشى أيضا أن تنال كثيرا من مكانتها ومنظرها. وراحت تقلب وتختار من كومة الملابس وتنفض الغبار عنها، وتضع التحدي أمام نفسها. وأخيرا، عقدت العزم بنية صادقة أن تخرج الآن، لابتياع ملابس من المتجر التجاري الكبير «يانشا» (لوفتهانزا) ونظيره ياتي، ولكنهما بعيدين ولا يمكن أن تذهب إليهما، والأقرب إليها حي شيدان، وعرجت على السوق التجاري في شيدان واختارت كنزة صوف محبكة وبلا أزرار ويختلط فيها اللون الأسود بالأحمر، وذلك حتى تشعر بالرضا ويهدأ روعها. وشعرت بأن ألوان هذه الكنزة مستقرة، ولكنها ليست جامدة، واللون الصاخب فيها ينضوي على الهدوء. والألوان ليست متنافرة، بل متناسقة سواء كانت

سوداء أو حمراء. ومن يدري فربما عندما تعود أدراجها وترتدي الكنزة وتنظر في المرآة ترى نفسها تشبه «الهودج». وارتأت أن شياشين على وشك الحضور بعربته، وطاولة الطعام خاوية. وخلعت الكنزة بسرعة، وفتحت الثلاجة وأخذت الكاتو، وتشكيلة الخضراوات التي جهزتها أمس، وكانت النتيجة أنها قلبت علبة تشكيلة الخضراوات الجاهزة، وانقلبت العلبة رأسا على عقب على ظهر قدمها، ووسخت شبشبها القماشي الجديد. ولكن ماذا أصابها؟ وماذا تريد أن تفعل؟ وباتت مثل المجنون.

وليس من السهل أن تجهز الطعام على أتم الاستعداد، ثم اكتشفت أنها ترتدي حمالة الصدر فقط، وتروح وتجيء بسرعة في الحجرة. تخفض رأسها عرضا وتلقي نظرة على صدرها، وتشعر دائما بالضيق والحرج لأن صدرها يكبر بصورة دميمة. ويجعلها ذلك لا تطيق النظر إلى نفسها بعناية واهتمام، ثم تعود إلى كومة الملابس المتناثرة والمبعثرة، وتلتقط قميصا رياضيا وتطرحه على جسمها.

وفي ذلك المساء، أكل شياشين الكثير من الكاتو، واحتست باي دا شنغ الشراب كثيرا. وأقيمت حفلة عيد الميلاد في جو رائع حقا. ولكن باي دا شنغ شربت كثيرا وهو ما سبب جلبة واضطرابا فجأة في أفكارها التي تتسم بـ «رباطة الجأش والتحفظ»، وعلى أية حال، حافظت كرها على هذا الجو الرائع على غرة أيضا. إن قلقها، وإرهاقها، وآمالها التي لم تحققها، وتمنياتها الحارة، ورغبتها العزيزة التي بدأت تفكر فيها منذ العاشرة، وتأمل أن يعترف بها الناس، بدا ذلك كله من الشرر المتطاير من المفرقعات

وأحـدث دويـا فـي فترة قصيـرة وجلب معـه الأضواء السـاطعة. وبدأت تطلب من شياشـين أن يتكلم، والحيلة التي لجأت إليها بسـيطة وصريحة وتتحلـى بالإجبار، كما تنطـوي على الإكراه إلـى حـد مـا، كأنما مكافـأة حفلة عيـد الميلاد هي أن شياشـين يجـب أن يعرب عن عواطفه وموقفه من علاقتهما، ولا يحتمل ذلك التسويف. ولم يخطر ببالها أن إقدامها على هذا التصرف لا يلحـق ضـررا بالآخرين إطلاقـا، ولكنها لا تسـتطيع التراجع مرة أخرى.

بـاي دا شـنغ تقول لشياشـين تكلم ولـو بكلمـات قليلة، من الـلازب أن تتكلـم. يقـول شياشـين: عندي شـعور مبهم، أشـعر سـلفا بأنك ربمـا أكثر الناس اسـتحقاقا للشـكر والامتنان في حياتـي. وتلاحقـه باي دا شـنغ بالسـؤال التالي: ومـاذا أيضا؟ ويقول: أشـكرك شـكرا جزيلا علـى وجه الخصـوص حقا. كان يتكلـم بصـدق وإخـلاص، ولكـن لا يجيد دائمـا توضيح بعض الأشـياء غيـر السـعيدة. لا تـكل بـاي دا شـنغ مـن ملاحقتـه بالأسـئلة، وتقول: ماذا في جعبتك من كلمات أخرى، بالإضافة إلى شكرك وامتنانك؟ بدا شياشين مشدوها، ويقول إنه لا يريد فـي الأصـل أن يتحدث كثيـرا في يوم عيد الميـلاد، ولكنه يدرك منـذ زمن بعيـد الكلمات التـي ترغب باي دا شـنغ أن أتفوه بها. وفي الأصل، كان يعتزم تقديم رؤية مستقبلية حول علاقاتهما، ولكن ليس اليوم، ربما غدا، أو بعد غد.. ولكن كان يعتريه شعور مسبق ويسترسل في الكلام ولا يهدأ. وقال إن علاقته مع باي دا شـنغ لا يمكن أن تشهد تطورا آخر. وهناك حادثة تركت انطباعا

عميقا جدا في نفسه هي: عندما جاء هنا في ذاك اليوم لتناول طعام العشاء، وبينما باي دا شنغ تطبخ في القلاية، تلقت مكالمة هاتفية. ويتطاير الدخان من القلاية في ذاك الجانب، وهي في هذا الجانب ترفع سماعة الهاتف بتأن وتنهمك في الدردشة. القلاية في ذاك الجانب تحترق وهي لاتزال تتحدث في الهاتف، مما أدى إلى تلطيخ جدار المطبخ ببقعة سوداء كبيرة، وكاد سقف المطبخ يحترق. وأردف شياشين قائلا إنه لم يفهم لماذا لم تستطع باي دا شنغ أن تخبر من تتحدث معه هاتفيا أنها تطبخ الآن، لا سيما أن هذه المكالمة الهاتفية غير ذي أهمية. كما كانت تستطيع إغلاق موقد غاز الفحم أولا، ثم تواصل الدردشة في الهاتف. ولكنها أصرت على...، أصرت على الطهي في القلاية والتحدث في الهاتف في آن واحد. وأضاف شياشين أن أسلوبها في الحياة على هذا النحو جعله يشعر بعدم الارتياح كثيرا.. باي دا شنغ تقاطع كلامه الخاص باحتراق القلاية وتقول إن ذلك مجرد هفوة مؤقتة وليس له علاقة بتصرفاتها الحياتية. يقول شياشين: حسنا، نعتبر ذلك هفوة مؤقتة. ولكنني أصر على أنني لا أتحمل مثل هذه الهفوة. ويواصل حديثه قائلا: وهناك أيضا موضوع آخر، باي دا شنغ تعرفت إلى شياشين منذ فترة طويلة وتوافق على إقراضه عشرة آلاف يوان لإقامة المصنع الكيماوي، أليس هناك احتمال أن يكون شريرا ويرغب في خداعها ونهب أموالها؟ لماذا تصدق بسرعة هكذا الرجل الغريب الذي يقف أمامها، وفي الحقيقة لم أفهم.

تتدفق كلمات شياشين ومن الصعب كبح جماحها، والحقائق التي عددها هي حقائق فعلا، وعلى الرغم من أن مشاعره فظة، ولكنها ليست خاطئة. إنه رجل يفتقر حتى إلى عمل مستقر، رجل يعول نفسه بالقوة، رجل يمكث في بيت باي دا شنغ ويتمسك بالحق وشجاع لا يهاب، ويتمتع بتناول الكاتو الذي قدمته له في عيد الميلاد، كما يستطيع أن يلوح بيده أمام باي دا شنغ خلاف ما كان متوقعا، وينبش الأخطاء ويتشدد في النقد. والفتاة باي دا شنغ التي في حالة يرثى لها لم يتوقع منها أنها لاتزال تكابر في الخطأ قائلة: أستطيع تغيير أسلوبي! آه، أستطيع تقويم نفسي!

في نهاية المطاف، أصبحنا عاجزين عن مناقشة الزواج. ويغادر شياشين بيت باي دا شنغ بعد حفلة عيد الميلاد. وتنخرط باي في البكاء، وتشعر بالاضطراب في قلبها، وتقول بصوت مهذب: امش كما تشاء، كما أود أن أبلغك أن حارة «فوما» سوف تهدم حالا، وبيتي القديم المؤلف من حجرتين يمكن تبديله - على الأقل - بوحدة سكنية تضم ثلاث حجرات، ثلاث حجرات! شياشين لم يدر رأسه، والرجل الذكي لا يعرف استدارة الرأس وقتئذ. قلب باي دا شنغ أكثر قلقا، ثم تندفع نحو شبحه وتقول: امش كما تشاء، لن تجد فتاة طيبة القلب مثلي مرة أخرى! هل سمعت كلامي؟ لن تجد فتاة طيبة القلب مثلي! عندما يسمع هذا الكلام يدير شياشين رأسه، ويدور جسمه، ويقول لباي دا شنغ: «في الواقع، كل ما أخشاه هو ما ذكرته أنت!، ومن المحتمل جدا، لا أجد فتاة مثلك». وهذا كلام حقيقي، ولكنه

ينصرف. وصراخها الذي يشبه ابتياع النفس عجل بانصرافه. إنه ليس مدينا لها، وهو ليس زبونا قال إنه سيشتري، ثم لم يشتر، كما أنه ليس زبونا أخذ أشياء مجانا، ولم يدفع الثمن، بل هو لم يلمس يدها.

باي دا شنغ لم تنظم طاولة الطعام، ولم ترتب السرير منذ فترة طويلة جدا. وظلت بقايا الكاتو من باي دا شنغ وشياشين فترة طويلة فوق الطاولة وأصابها العفن، ويوجد بجوارها كأسان تعلوهما الأوساخ والبقع الزيتية. وتنشر باي دا شنغ بصورة فوضوية فوق سريرها في داخل الحجرة تلك الملابس التي كانت تقلبها مرة بعد مرة في يوم حفلة عيد ميلاد شياشين. وتعود أدراجها بعد انتهاء العمل وتقبع في كومة الملابس وتغط في نوم مسهد. وذات يوم، يدلف باي دا منغ إلى حارة «فوما» لزيارة باي دا شنغ، ويصرخ فور دخوله قائلا: «أختي الكبيرة، ماذا أصابك؟!».

(٧)

يشعر باي دا منغ بالدهشة إزاء الأحوال النفسية التي تعيشها باي دا شنغ إذ ذاك. بيد أنه لم ينتابه القلق الشديد. فهو يفهم أخته الكبرى، ويعرف أنه لا يحز في نفسها حقا أي أمر من الأمور. ووضعت أحوالها النفسية وقتئذ بعض العقبات أمام الموضوعات التي يعتزم أن يناقشها معها، فقد جاء أصلا لمناقشة موضوع إزالة حارة «فوما».

ويتزوج باي دا منغ قبل باي دا شنغ. وزوجته تدعى مين مين وتعلم الموسيقى في مدرسة معلمي الأطفال. وكانت باي دا شنغ الوسيط بينهما. وبعد زواجه، لم يبرح باي دا منغ البيت، حيث إن وحدتي عمله وعمل زوجته يفتقران إلى الأمل في توزيع الوحدات السكنية، ثم استقر رأيهما على الإقامة في البيت. وتبذل مين مين قصارى جهدها من أجل تحسين علاقاتها مع الحمو والحماة. وعلى الرغم من أن تشكيلة المعيشة على هذا النحو جعلت مين مين تشعر بالعديد من الصعوبات وعدم الارتياح. ولكنها الحقيقة، واضطرت أن تحسب حساباتها بدقة على هذا النحو. في المستقبل عندي طفل، ومن المنطقي أن ترعاه الحماة المتقاعدة، ولا تقوم حتى بإعداد الطعام بعد أن تنصرف

مـن عملهـا هي وزوجهـا ويعودان إلـى البيت، وتقدح زنـاد ذهنها وتزيـد بعنايـة ما لها وما عليها، ولا تسـتطيع أن تدعي مواسـاة الـذات. وإذا لـم تتـوارد أخبـار عن هدم حـارة «فومـا»، فالزوجان يقطنان في البيت ردحا طويلا، وقد اكتسبت مين مين الخبرات والمهارات من خلال معاشرتها واحتكاكها بالحماة. والإصرار على إزالـة حـارة «فومـا» آنذاك كان خبـرا مؤكدا. وتلقت باي دا شـنغ بلاغـا جـاء فيه أنهـا يمكن أن تحصـل على وحدة سـكنية بمثل مسـاحة البيت الذي تقيم فيه مكونة من ثلاث حجرات ومجهزة بالغـاز والمدفـأة في نطـاق الطريـق الدائـري الرابع. وفـي فترة وجيزة، تسـود الفوضى هذه الحارة، وينتشـر في سـاحات الديار أنين الشـكاوى وتنهدات الحسرة والألم، والتأثر الشديد والقلق. والسـواد الأعظـم من أهالـي الحارة لا يرغبون فـي الانتقال إلى مـكان آخـر، ولا يرغبون في مغـادرة المنطقة الذهبيـة في مدينة بكـين التي حرسـوها طـوال حياتهـم. والجدة جـاو القاطنة في الدار الرباعية الشـرقية رقم «٩» وسـقطت أسنانها تقول لباي دا شـنغ: أنا مـن أهالي بكين طول العمر، وبعـد أن أصبحت طاعنة في السن يطردونني من بكين. وتقول باي دا شنغ: يا جدتي جاو، الطريـق الدائـري الرابع في بكين أيضا. وتـرد الجدة جاو قائلة: أليست ضاحية «شون بي» في بكين أيضا؟!

ومستر جيان في الدار الرباعية الشرقية رقم «٣» تحدث مع كل من صادفه، وشرح لي بوضوح قائلا: بيتنا يمكن استبداله بوحدة سـكنية تتمتع بالسـلم الخـاص، وتضم أربع حجـرات وصالتين، ونختـار البنايـة السـكنية التـي تقيم فيهـا. ولكن الأشـجار في

صحن الدار أشجار القرنفل والتفاح الشرقي، أريد أن أسألهم إذا كانوا يستطيعون زراعتها أمام هذه البناية! ويهز مستر جيان رأسه ذي الشعر الأشيب، بارزا للعيان خصال الرأسمالي الصغير.

تكن باي دا شنغ مشاعر عميقة تجاه حارة «فوما»، ولكنها ليست مثل الجدة جاو، ومستر جيان، فقد عقدت العزم على ألا تسبب مشكلة أمام أعمال الهدم والإزالة. وتبدو الحياة الجديدة، والغرف الواسعة النيرة، والحمام الحديث أكثر أهمية لدى باي دا شنغ عن الموقع الطبوغرافي للمبنى السكني، بالإضافة إلى أنها آنذاك كانت تفكر بالتأكيد في شياشين، وجال بخاطرها منظره المثير للشفقة وهو يلهث في كافة البقاع بحثا عن شقة يستأجرها ومناقشته تخفيض الإيجار مع المالك. ولا تدري باي دا شنغ عدد المرات التي يردد فيها لسان حالها في أعماقها عبارة: تزوجني، الآن عندي مسكن، وفي المستقبل سيكون عندي مسكن أفضل!

وأحدث هدم حارة «فوما» هزة في أعماق باي دا منغ ومين مين. وفي عبارة أدق، ظهر رد الفعل الأكبر من قبل مين مين. وذات يوم، وفي الليل تعاني من الأرق وتتقلب في الفراش وتطلب من زوجها أن يستيقظ وتقول: إذا عرفنا سلفا أن حارة «فوما» تواجه الهدم والإزالة، كان من الأفضل عند زواجنا أن نبادل المسكن مع باي دا شنغ، وطلبنا منها أن تنتقل وتقيم مع أمها. ونقيم نحن أنا وأنت في هذه الحارة. وعلى هذا النحو، ومن الطبيعي أن تؤول إليهما الوحدة السكنية الجديدة ذات الحجرات الثلاث. يقول باي دا منغ: الآن مناقشة هذا الموضوع باتت متأخرة،

فضلا عن أن أحوالنا المعيشية هكذا، أليست طيبة جدا؟ وتقول مين مين: لا تمتلك الحق أن تقرر أحوالنا المعيشية جيدة أم لا. بالتأكيد أنت ابن أبيك وأمك، ومهما قلت فأنا غريبة في بيتكم. أنت تشعر بأن مسكنا هكذا جيدا، هل تعرف كم تحملت من إرهاق الذهن والتكتيك؟ الإنسان يعيش ويشعر دائما بأنه يجب استغلال القدرات والمهارات، وذلك في حد ذاته يصيبني بالإرهاق والإعياء. وحلمي يتطلع إلى الانتقال ونعيش معا في مسكن مستقل، نقطن في المسكن الخاص بنا، ويتم تصميمه وترتيبه حسب أفكارنا. ويقول باي دا منغ: إذن، ما الذي تعتزمين القيام به؟ تقول مين مين: هذا الموضوع - بادئ ذي بدء - لا تشاور فيه أبويك، اذهب أولا إلى باي دا شنغ وأبلغها إياه، ثم أخبر أبويك بعد عودتك. وقد يترددان بعض الشيء، ولكن لا يجوز أن يعترضا على عودة ابنتهما إلى البيت والإقامة معها. ويقاطع باي دا منغ كلام زوجته ويقول لا أستطيع إطلاقا معاملة أختي الكبرى بهذه الطريقة، إنها طوال حياتها وعلى مدى ثلاثين عاما ونيف لم تنجح دائما في اختيار حبيبها المناسب، ونحن لا نستطيع مرة أخرى نجعلها تتخلى عن مسكنها المستقل الخاص بها. تقول مين مين: حسنا، أختك الكبرى بمفردها تحتاج إلى هذه المساحة الشاغرة، ونحن أكثر احتياجا إلى مثل هذه المساحة. فضلا عن أنها تمكث بمفردها دائما وتشعر بالوحدة، وإذا انتقلت ورجعت إلى الإقامة مع الأبوين سيتبادلون الاهتمام والرعاية. حديث مين مين يسيطر على باي دا مينغ ويتشاور معها أن يذهبا معا إلى باي دا شنغ. وتقول مين مين لا أستطيع الظهور أثناء

مناقشة هذا الأمر، يجب عليك أن تذهب بمفردك وتتناقش معها. أنتما الأخت الكبرى والشقيق الأصغر قد لا تدركان أبعاد كلامكما وتستطيعان الصفح، وليس من اللائق أن أظهر في الصورة. يشعر باي دا منغ أن كلام زوجته صائبا، ولكن لا يزال يسدي النصح إليها حتى تفكر مليا وبعناية في هذا الأمر، ثم تتخذ القرار. وترفض مين مين بصرامة وتقول: هذا الأمر لا يحتمل التأخير، يجب عليك أن تذهب على جناح السرعة. ولم يجد باي دا منغ مناصا وينهض من الفراش في منتصف الليل ويذهب إلى باي دا شنغ لأن زوجته في عجالة من أمرها. وبعد انقضاء بضعة أيام، يذهب مرة أخرى إلى حارة «فوما» في ظل الإلحاح الشديد والمتواصل من زوجته.

يجلس باي دا منغ على حافة سرير باي دا شنغ ومفارشه غير مرتبة وفي حالة فوضى، وأسفل منه يضغط على كنزة باي دا شنغ ذات الألوان الحمراء والسوداء، ويدرك أن أخته الكبرى من قليلي الحظ، ويصب لها كوبا من الماء. تشرب باي دا شنغ الماء، ولم تستطع كبح مشاعرها وتأثرها، ويتعثر لسانها وتقول شياشين بدلا من باي دا منغ. تتكلم، وتبكي، وتتدفق دموعها مثل خيط متقطع من اللؤلؤ، ويدرك باي دا منغ أنها حزينة للغاية. ويجول بخاطره حب أخته الشديد له في غضون أكثر من عشر سنوات والتي مرت في لمح البصر. كما يتذكر عهد الطفولة عندما رمى قشرة الموز في صحن الدار ذات مرة، وتدوس عليها الجدة وتزل قدمها وتهوى على الأرض، ويشعر بالخوف إلى درجة القلق والارتباك، ويقول إن باي دا شنغ هي التي رمت

قشـرة الموز. الجدة تصـب اللعنات على باي دا شـنغ طوال اليوم وتطلب منها أن تكتب نقدا ذاتيا خطيا استغرق ليلة وتوافق باي دا شـنغ ضمنيا على أنها اقترفت هذه «الغلطة»، ولم تفضح باي دا منـغ ولم تتذكر أنهـا كرهته جراء «اتهامهـا زورا وبهتانا» لدى الجـدة. بـاي دا منغ يتذكر كل ذكريات الطفولة، وفي الحقيقة لا يعرف كيف يطلب منها تبديل المسـكن. وأخيرا، تثير باي دا شنغ انتباهه وتقول له جئت لزيارتي، هل لديك ما تناقشه؟

بـاي دا منـغ صلـب قلبه، ويكشـف لأخته النقاب عـن موضوع تبديل المسكن بصورة كاملة. ولم يكن في الحسبان أن تصبح باي دا شنغ غير مسرورة جدا، وتقول بالتأكيد إنها فكرة مين مين، وأدركت في التو عندما سـمعت كلامه أن زوجته صاحبة هذه الفكرة، فهي تجيـد طرح مثل هذه الأفـكار بالفطرة. وقالت إنها تشـعر بالندم منـذ زمن بعيد لأنهـا في البداية قدمت مين مين إلى باي دا منـغ، وجعلتها من أفراد عائلة باي. وتسـتجوب باي دا منغ وتسـأله لماذا يشـترك مع مين مين في خداعها؟ ألم تدرك ملامح الخداع التي تبدو عليها في الوقت الحاضر؟ أم أنت تتظاهر أنك لا تعرف تلك الأمور التي لا تتمناها منذ أمد بعيد؟ وتقول إن باي دا منـغ شرير فعـلا، ويفتقر إلـى الضمير حقا، أنت تثير حافظتي، أتعتقد أنني أصلا لا أغضب منك؟! وتقول إذا كنت تفكر على هذا النحو، فأنت ارتكبت خطأ جسيما، والآن أخبرك أنا غضبانة، أنا غضبانة جدا، أنـا مفعمة بالغضب، والآن عليـك أن تعود إلى البيت، وتطلب من مين مين أن تحضر هنا، لأرى كيف تجرؤ أمامي أن تكرر مرة أخرى الفكرة الغثة التي اشتركتما في اختلاقها!

تتغيـر نبرة كلامها من الصوت الخفيض إلى الصوت المرتفع، وكانـت مفعمة بالحماسـة التي لا تنضب وبصورة لم يسـبق لها مثيل، ويبدو أنها تنسى نفسها وتغيرت كلماتها الساخرة اللاذعة. ولم تدرك متى غادر باي دا منغ بيتها في هدوء، وبعد أن اكتشفت أنه غاب عن عينيها، أخذت تهدئ نفسـها بترو. إن مغادرة باي دا منـغ الهادئة جعلت قلبهـا يخفق من الخـوف والقلق، وفي هذه اللحظـة، تشـعر بأن ظلـه لم يندثر مـن حارة «فومـا» فقط، بل حتـى ربما تلاشـى وجوده من الكرة الأرضيـة. وعلى كل حال، ما الخطأ الذي اقترفه، إنه أخوها الصغير! عندما ولد وفي قماطه أصابه السـعال الديكي، وعندما بلغ العامين، سـدت حبة بقولية حنجرته واحتبسـت أنفاسـه وكاد يموت، وفي عمر الثالثة أجرى عمليـة الفتاق فـي الأمعاء الدقيقة، وفي الخامسـة وفي خريف ذاك العام سـقط في البئر الجافة في صحن الدار وشـجت رأسه وسال منها الدم، وفي السابعة عانى من الالتهاب السحائي، وفي العاشـرة اصطدم بزملائه في الدراسـة وسقط على السلم قبالة مدخـل الفصـل وسـقط القاطع من أسـنانه... دا منغ يسـتحق الشـفقة! لماذا كل تلك المصائب والحوادث المؤسـفة تصيب باي دا منغ وأنا باي دا شنغ التي لم تصبها أية مصيبة، لماذا لا تستطيع الموافقـة على أن يقـطـن أخـوها الصغير، الـذي تحبه بصـورة لا تضاهـى، فـي المسـكن الجديـد كمـا يتمنـى ويشـتهي. وكلما قلبـت الأمـر في ذهنها شـعرت بوخز الضمير تجاه بـاي دا منغ، وأجبرتـه علـى السـير علـى درب اليـأس عندما زجرتـه. ويتعين عليهـا أن تخرج وتبحث عـنه في التـو، تبحـث عـنه وتخـبره بأن

تبـديل المسكن لا يعتبر موضوعا مهما، وبأنها ترغب في التبديل وتعطي مسـكنها لـه ولزوجته، ترغب في الانتقـال إلى بيت الأم والأب والإقامة معهما.

عثـرت علـى بـاي دا منـغ فـي وحـدة عملـه وأعلنـت قرارها. وشـعرت بالخجـل لأنهـا عنفت مـين مـين، واتصلت بهـا هاتفيا وكررت على مسـامعها قرارها ورغبتها في تبديل المسـكن معهما. وكانت كلماتها معسـولة، وصوتها رقيق وناعم. وأصبحت - على حـين غـرة - تطلب بإلحـاح منهمـا تبديل المسـكن بعـد أن كانا يتوسـلان إليها أصلا، حتى إنها كانت تشـعر بالقلق والاضطراب فترة طويلة إذا كانت موافقتهما يشوبها التردد ولو كان قليلا.

لقد قدمت مسـكنها الخاص هدية، وتصادف عودتها إلى بيت أبويها مع اليوم الذي شـهد إزالـة وهدم حارة «فوما». وكانت هذه الفكـرة مصحوبة بنوبـة من البؤس والحزن، ويمـوج قلبها دائما بمشـاعر عاطفيـة غامضة. وتواظب علـى الترجل في الحارة كل يوم. وتسـتطيع أن تتذكر الكثير من الذكريات والأحداث الماضية منـذ عهد الطفولة إلى الكبر. فقد شـهدت هذه الحارة قصصها مـع بعض «الأصدقـاء». وترغب كثيـرا قبل أن ترحـل من الحارة فـي التخلـص من الآلام بهـدوء، لا تريـد أن ترى أحـدا، وتمكث بمفردهـا فـي المسـكن القـديم المؤلـف مـن حجرتـين. ولا تهتم بالطـارق علـى البـاب، وتنصرف مـن العـمل وتعـود إلى البيت، ولا حتى تضيء المصباح، وتتحسس خطواتها في الظلام وتدلف إلى داخل البيت، وتنجز كافة أعمالها وسط الظلام، حتى تجعل الجميـع يعتقدون أن مسـكنها خـال من الناس حقـا. وذات يوم،

وعندما وصلت إلى مدخل البيت وتحمل في رأسها هذه الأفكار، رأت رجلا يحمل طفلا ويقف أمام المدخل وينتظرها. إن هذا الرجل هو «قوا هونغ».

قدوم قوا هونغ حطم خواطر باي دا شنغ المسبقة ومفادها أنها لا تريد أن تراه أصلا، حيث لم تفلح محاولته للسفر إلى اليابان، لأن تلك الطالبة اليابانية غيرت فكرتها فجأة ولم تتزوجه. ولكنه لم يرجع إلى مدينة داليان، وعقد العزم على أن يستقر في بكين. وفيما بعد، حصل على العمل والزوجة في بكين. حصل على وظيفة محرر في مكتب مجلة التجميل. وبعد مرور بضع سنوات من زواجه، أنجبت زوجته ابنة. وزوجته تعمل مترجمة في شركة للترجمة، وبعد أن أنجبت ابنتها بفترة وجيزة، حصلت على فرصة للسفر إلى بريطانيا مع بعثة استطلاعية تابعة لإحدى المؤسسات، ولم ترجع منذ ذلك الحين، بل حتى رمت الطفلة وتركتها لأبيها. وهذا الزواج الذي يشبه الحلم جعل قوا هونغ يشعر دائما بأنه ليس حقيقة. وإذا لم يحتضن هذه الطفلة التي أنجبها وتدب فيها الحياة، ربما كان يستطيع أن يتظاهر صراحة أن هذا الزواج يعد حلما كبيرا، ويبدأ كل شيء من جديد، وربما أنه مازال شابا ولم يعرف الشيخوخة بعد. الابنة في أحضانه، وعمرها دون العامين، وتألف أباها المسؤول عن أكلها وشرابها وبرازها، إنها كائن حي وليست حلما.

وفي هذه اللحظة، يجلس قوا هونغ على أريكة باي دا شنغ ويشرب علبة المشروب، ثم جعل ابنته، التي يداعب النعاس جفونها، تتمدد بجواره. قال لباي دا شنغ: لقد رأيت بنفسك

أحوالي. وتقول باي دا شنغ: نعم، رأيت أحوالك. ويقول قوا هونغ أعرف أنك لم تتزوجي بعد. وتقول باي دا شنغ: وما رأيك في ذلك؟ يقول قوا هونغ: أريد الزواج منك، كما أنك لا تستطيعين رفض الزواج مني، وأعرف أنك لا ترفضي ذلك. وبعد أن ينتهي من كلامه يركع أمام باي دا شنغ، وتبدي ملامحه قليلا من الإخلاص، وقليلا من التهديد أيضا.

إنه مشهد لا تجود بمثله مئات السنين، رجل وقور مهيب يركع أمامك ويتوسل إليك. باي دا شنغ التي تتوق إلى الزواج منذ سنوات عديدة، تستطيع أن تتخيل نفسها أميرة تزهو بنفسها، وفي طرفة عين، يومض قلبها - حقا - بومضات الإعجاب بالذات، ومضات الشعور بالبهجة، ومضات الدوخة والدوار. ويكفيها أنها انتشت غرورا واعتدادا بنفسها حتى لو تخلى قوا هونغ الجاثم على الأرض عن اشتياقه إلى الزواج منها، أو اختلط عليه الأمر، وصعب عليه التعبير عن كل ما يجول في خاطره. ولا يوجد رجل يعاملها بهذه الطريقة، ومثل هذه المعاملة ربما تكون أيضا المرة الوحيدة التي تصادفها في حياتها. تشعر بأنها مشوشة الذهن، وتفكيرها مبهم حينا من الزمن. وتخفض رأسها وتنظر إلى قوا هونغ الجاثم على أديم الأرض، وتشم رائحة شعره، فهذه الرائحة مألوفة لديها عندما كانا زميلين في الجامعة. وهذه الرائحة جعلت كل شيء في هذه اللحظة قريبا وبعيدا أيضا. ولا تستطيع أن تقدم جوابا، وتستجمع قواها وتسأله: لماذا؟ لماذا كل ذلك؟

يرفع رأسه، ويقول لها: لأنك عطوفة، ورقيقة الحاشية، لأنك

طاهرة وخيرة. ولم أر مثلك من قبل، وربما لا يمكن أن ألتقي بفتاة مثلك في المستقبل. أدركت مغزى كلامي.

تطأطئ باي دا شنغ رأسها وتشعر بنوبة من الحزن الشديد على غرة. وربما تريد عن قصد في لحظة شعورها بالدوار أن تستمع إلى رجل يتحدث إليها ويقول إنها هي فتاة جميلة!، فتاة من الصعب جدا أن ينساها، ويشبه ذلك العديد من الرجال الذين عبروا عن مشاعرهم تجاه فتاة شيدان شياو ليو، والفتاة شياو فين، ويشبه أيضا مشهد الأطفال الإناث اللواتي يحطن بباي دا شنغ ويعبرن عن شعورهن نحوها. ويشبه ذلك أيضا عندما يعبر زوجي وانغ يونغ عن مشاعره نحوي. ولكن الرجل الجاثم على الأرض لم يعبر لها عن مشاعره نحوها بهذه الطريقة، بيد أنها أخيرا سمعت بأذنيها ما لم يتفوه به كل الرجال الذين عرفتهم، وذلك كلما كانت في نظرهم. مما يسبب شعورا ما بالتعاسة، وانتابتها مشاعر المعاملة غير العادلة التي سببت جرحا غائرا في قلبها. تتحدث إلى الرجل الجاثم، وكلماتها مفعمة بالحقد والبغضاء، وزاخرة بالبؤس، ومملوءة بالتنوير والإرشاد. من أجل ذلك كله! أنت، إذن، لا تستطيع أن تقول إنني اخترت غيرك!

يقول الرجل الجاثم على الأرض: لقد أفصحت عما يعتمل في نفسي ويدور في ذهني حقا. أنت فتاة صالحة حقا.. وعشت طوال هذه السنوات وكان من الصعب إدراك الحقيقة.. وتقاطعه باي دا شنغ قائلة: ولكنك لم تفهم، الآن قد أصبحت هذه «الفتاة الصالحة»، ولم يدر بخلدي قط أن أصبح هكذا!

مازال الرجل جاثما على الأرض، وتبدو عليه فقط أمارات

الحيـرة، ثـم تقول باي دا شـنغ أيضا، لماذا لاتـزال لا تفهم مغزى كلامـي، أنا الآن أصبحت هذه «الفتـاة الصالحة»، لم تكن رغبتي - قط - أن أصبح هكذا!

يقـول الرجل الجاثم على الأرض، أنت تقولين نكتة يا باي دا شنغ، أمعقول أنت تعتقدين أنك من الممكن أن تتغيري وتصبحي إنسـانا آخر؟ أنت من المسـتحيل، أنت من المسـتحيل أن تصبحي إنسانا آخر إلى الأبد!

تصرخ باي دا شنغ بصوت عال، وتقول: كم تبعد الأبدية عنا؟!

* * *

جلسـت فـي مقهى الطابـق الثاني فـي متجر «شـيدو» أنتظر ابنة خالتي الصغرى باي دا شنغ التي حضرت. وطلبت لها شراب الـكاكاو البـارد، وقلت أنا أعـرف أنك مازلت ترغبـين في مواصلة مناقشـة موضوع زواجك من قوا هونغ معي. وأقول لك الحقيقة إن هـذا الزواج غيـر ذي معـنى، ولا تتـرددي مـرة أخـرى، أنت لا تسـتطيعين الزواج منه. وتقول باي دا شنغ إنني حددت موعدا حتـى نتقابـل لأنني أرغـب - حقا - في مناقشـة أمر قـوا هونغ معك، أأنت تعتقديـن أنني مازلت حمقاء، كما كنت في الماضي؟ آه، لـم أعـد بلهاء، ولم أعد حمقاء مرة أخرى. أوه، يركلني بقدمه إذا أراد التخلص مني، وأصبح طوقا كبيرا، وأخيرا، أحمل ابنته، التي أنجبهـا من زوجة أخرى، في حضني وأعود إلى هنا، وليس عندي أسرة! وقد ركع أمامي، ولكن ذلك لا يعني أنني عندي أسرة!

وأدهشني «الوعي» الذي أصبحت تتمتع به باي دا شنغ، وخوفا من أن يرق قلبها وتغير رأيها مرة أخرى، اسـتجمعت قواي وقلت:

أعرف أنك لست حمقاء، والإنسان ينضج رويدا رويدا. وهذا الأمر ليس سهلا أصلا، ولا تعتقدي أنك عندما لا توافقين يعني أنه يوافق، وكيف تبرر الخالة وزوجها - في هذا الصدد - موضوع زواجكما؟ وبالإضافة إلى ذلك، أنت أعطيت شقتك لباي دا منغ، وإذا كنت ترغبين حقا في الزواج من قوا هونغ، فهل تستطيع الخالة وزوجها الموافقة على أن تقيما في بيتهما، فضلا عن ابنة قوا هونغ؟ وتقول باي دا شنغ: لا تقولي إن أسرتنا لا توافق على إقامتنا معها، وكانت أسرة قوا هونغ تقطن دائما في بيت أخت زوجته الكبيرة، ولكنها الآن ترفض إقامة الأب وابنته. ولذلك، لم أعره اهتماما، وقلت: جوهر الموضوع لا يستحق اهتمامك. وتقول باي دا شنغ: مثل هؤلاء الأشخاص لا أرغب في الاهتمام بهم مرة أخرى طوال حياتي. وقلت: هل عمرك ما زال طويلا؟! وترد قائلة: ومن ثم، أريد أن أصبح إنسانا. نتكلم ونكرع مشروب الكاكاو البارد في جرعة واحدة، وتطلب مني مرافقتها وهي تشتري مستحضرات التجميل. وقالت إنها تريد تغيير الماركة التجارية لتلك المستحضرات التي تستعملها دائما مثل ماركة «أو يوه لاي»، وتريد أن تستبدلها بماركة «CD»، أو ماركة «تشيان بي»، ولكن أسعارهما باهظة، وتغرق في أحزانها من دون داع، وتستخدم من اليوم فصاعدا لبن الأطفال. وقد زعمت النجمة السينمائية الشهيرة صوفيا لورين أنها تستعمل فقط لبن الأطفال.

وتجولت مع باي دا شنغ في كل طوابق متجر «شيدو». وفي قسم الأزياء الحريمي، تتمسك باي دا شنغ - على خلاف أسلوبها المعتاد - بالملابس التي لا تناسبها تماما وتصر عليها: الأزياء

المرقشة الزاهية أو الشفافة للغاية، أو المحبوكة المطاطية. وأحاول كبح تصرفاتها باستمرار، ولكنها عنيدة، وقلقة أيضا، ولا تنصاع لنصيحتي فقط، بل تتعارك معي أيضا. ونشب بيننا شجار، وقلت لها إن الملابس التي تحبينها لا تعجبني، وتقول باي دا شنغ: لماذا أحب الملابس التي أنت تصرين على نبذها؟ قلت: لأنها غير مناسبة لك. وتقول باي دا شنغ: لماذا غير ملائمة، أمعقول أنني لا أمتلك حق اتخاذ القرار في شراء قطعة ملابس. وقلت: لكن أنت تتذكرين - إلى الأبد - مثل تلك الملابس غير المناسبة لك. وتقول باي دا شنغ: ماذا يعني أنها غير مناسبة إلى الأبد، وما هي الأبدية؟ أنت تقولين ما هي الأبدية؟ الأبدية - على كل حال - بعيدة جدا!

والتزمت الصمت في ذلك الحين، حيث ينتابني شعور مسبق، شعرت بأن كل شيء ليس سهلا كما جال بخاطري سلفا، ولم يكن في الحسبان، أن أتلقى مكالمة هاتفية من باي دا شنغ في ظهر اليوم التالي، وأخبرتني أنها تتلفن إلي وهي في المكتب الخالي من الأفراد الآن. وطلبت مني أن أخمن ماذا وجدت عندما كانت تخيط الملابس فوق الأريكة بعدما عادت إلى البيت مساء أمس؟ وقالت إنها عندما كانت تخيط فوق الأريكة وجدت منشفة مزركشة قليلا، ومتجعدة ومكرمشة، وقذرة بعض الشيء. بالتأكيد أن قوا هونغ نسيها هنا عندما جاء لزيارتي حاضنا طفلته منذ يومين، إنها بالتأكيد منشفة ابنته. وأضافت أن تلك المنشفة الصغيرة جعلتها حزينة فترة طويلة، والمنشفة تفوح منها رائحة اللبن الحامض، وتهم أن تغسلها وتنظفها، وتارة تغسل، وتارة أخرى تبدي شفقتها

تجاه الطفلة. وأخبرتني أيضا بأن الأب قوا هونغ وابنته يعيشان حياة مريرة، حتى الطفلة تفتقر إلى منشفة نظيفة. وقالت إنها لا تستطيع أن تعامل قوا هونغ بهذه الفظاظة، إنه مسكين حقا، إنه يثير الشفقة فعلا.. وتكرر باي دا شنغ كلمة «مسكين» مرات عديدة بصورة متتالية، وتقول: لقد فكرت مليا في الأمر، ولاتزال لا تستطيع أن ترفض الزواج من قوا هونغ. ولفتُّ انتباهها وقلت لا تنسي أنك رفضت إياه. وتقول باي دا شنغ: «ومن ثم، ضميري قلق إلى الأبد». وسألتها: كم تبعد الأبدية عنا؟!

الذعر يصيب باي دا شنغ في الهاتف، وتواصل حديثها وتقول إنها لا تعرف كم تبعد الأبدية عنا؟! ولكن من المحتمل - إلى الأبد - أنها لا تتغير وتصبح مثل الإنسان الطيب طوال حياتها. وكان ذلك - في الأصل - أمرا ليس سهلا، بل يبدو أكثر صعوبة من زواجها بقوا هونغ.

إذن، ترغب باي دا شنغ - في نهاية المطاف - في الزواج من قوا هونغ. وأنا لا أريد اللغط معها في الهاتف أو إسداء النصح إليها، وقلت فقط: وهذه النتيجة كنت أعرفها - حقا - منذ وقت مبكر.

في ذلك المساء، أترجل أنا وزوجي وانغ يونغ في شارع تشانغآن الذي يتوسط قلب العاصمة بكين، فقد قاد سيارته من المدينة «B» وحضر إلى بكين خصيصا حتى يستقبلني ونعود معا إلى بيتنا. ولم أتُق قط إلى رؤية زوجي كما كانت رغبتي في ذاك اليوم. وقلبي يغص بالحب اللامحدود والمشاعر العاطفية تجاه زوجي. وأريد أن أضع رأسي فوق منكبيه العريضين القويين، وأقول له: «آمل أن أعاملك معاملة حسنة إلى الأبد، إلى الأبد». ووضعنا

السيارة في جراج فندق القوميات. وتقع حارة «فوما» بانحراف في الجهة المقابلة للفندق، وترجلنا داخل الحارة، وغادرناها، وعرجنا على شارع تشانغآن. ولم نذهب إلى دار باي دا شنغ ونزعجها. وليس في جعبتنا عذر وقلت لزوجي محاولة البحث عن تبرير: أأنت تعاملني معاملة حسنة إلى الأبد؟ زوجي يسحب يدي، ويقول: أنا أحبك إلى الأبد.. إلى الأبد. وقلت: كم تبعد الأبدية عنا؟ يرد زوجي قائلا: ماذا؟ فقلت: إن حارة «فوما» على وشك الإزالة، كما أخبرته أن باي دا شنغ ترغب في الزواج من قوا هونغ. وقلت له أيضا إنها بدلت مسكنها مع باي دا منغ. كما جال بخاطري - بالإضافة إلى ذلك - أن أقول لزوجي وانغ يونغ إن باي دا شنغ التي يلتصق - إلى الأبد - بمؤخرة عنقها قطعة من معجون غسيل الشعر صفار البيض، والتي تقف أمام صنبور المياه وتغسل منشفة الطفلة الصغيرة التي لا تعرفها، أصبحت الآن لا يمكن تقويمها على هذا النحو.

لا يمكن تقويم باي دا شنغ، ولذلك أكرهها إلى الأبد. وكم تبعد الأبدية عنا؟

ولا يمكن إصلاح باي دا شنغ، ولذلك أحبها إلى الأبد. وكم تبعد الأبدية عنا؟

ومن أجل هذا الحب، وهذه الكراهية، وحتى لو أزيلت حارات بكين وسويت بالأرض، سأبقى المتفرجة المخلصة على بكين إلى الأبد أيضا.

آه، الأبدية بعيدة جدا!

آه، أنت الفتاة شيانغ شيويه

ليس غريبا أنك لم تكتشف القرية الصغيرة «تاي أرقو» إذا لم يوجد مخترع القطار، وإذا لم يقم أحد بمد خط سكة حديد في بطن الجبل. وتتوارى أعماق هذه القرية وعشر أسرات ونيف في الجوف العميق لهذا الجبل الضخم، وتتقبل في هدوء وصمت - من الربيع إلى الصيف، ومن الخريف إلى الشتاء - الوداعة والفظاظة اللتين يجلبهما هذا الجبل كما يشاء.

بيد أن هذه القرية شهدت مد قضيبين دقيقين لامعين. وامتد الخط الحديدي بجسارة إلى سفح الجبل وسبر أغواره بلا ضجة متقدما إلى الأمام، مجتازا المنعطفات والتعرجات حتى وصل أخيرا إلى أسفل القرية، ثم يخترق النفق المظلم نحو قمة الجبل متجها صوب مكان ساحر قاص.

وبعد انقضاء فترة وجيزة، دخل خط السكة الحديد حيز التشغيل بصورة رسمية، وتزاحم الناس في مدخل القرية لمشاهدة القطار الأخضر الطويل كالتنين على الطريق وصفارته تزأر، مقلا الغرباء من خارج الجبل، وحاملا النسيم المنعش، ويعدو سريعا ويكاد يلامس ظهر القرية الفقيرة الضخمة «تاي أرقو». ويلتهم القطار الأرض التهاما إلى درجة أن قعقعات

عجلاته فوق القضبان يصدر منها صوت وكأن لسان حاله يقول: القطار لا يقف! القطار يمرق سريعا! أجل، القطار ليس في جعبته سبب يجعله يقف في هذه القرية، وهل يرغب أحد من قاطنيها في السفر بعيدا عن منزله؟ وهل يأتي أحد من خارج الجبل لزيارة أقاربه في القرية؟ أيوجد في القرية مخزون نفطي ومنجم ذهب في جوف أرضها؟ إن قرية «تاي أرقو» - في جميع المجالات - لا تتحلى بالمزايا التي تجعل القطار يقف فيها.

ولكن، لا أتذكر بجلاء متى أدرجت محطة قرية «تاي أرقو» في جدول مواعيد القطارات. ربما كان ذلك بناء على طلب ركاب القطار، وكان من بينهم من ينظر إلى كلماته بعين الاعتبار وتربطه وشائج قربى بالقرية، وربما أن عامل القطار المبتهج اكتشف أن القرية بها ثلة من الفتيات الحسناوات اللواتي تتراوح أعمارهن بين السابعة عشرة والثامنة عشرة. وكل قطار يعدو بأقصى سرعة ويمر بالقرية، يصبح هؤلاء الفتيات مثل معاون المحطة يقفن في مدخل القرية، يرفعن أعناقهن ويسلطن نظرات الشوق واللهفة ويرمقن القطار بتركيز شديد. وتشير إحداهن إلى عربة الركاب، وتستطيع أن تسمع بين الفينة والفينة صرخات حادة تصدر منهن جراء تعاركهن وتشابكهن بالأيدي. وربما أن كل شيء على ما يرام، لأن قرية «تاي أرقو» صغيرة جدا إلى درجة تجعل قلب المرء يشعر بعدم الارتياح، وتجد الفتيات أنفسهن أمام القطار الشبيهة بالتنين الضخم ومكوناته من الحديد الفولاذي الصلب، ولا يستطعن أن يجدن موطئ قدم لمشاهدته، وزبدة القول، أنه بعد إدراج محطة «تاي أرقو» في

جدول مواعيد القطارات، فإن كل قطار يقف دقيقة واحدة في هذه القرية، حيث ينطلق في الثامنة مساء كل يوم من العاصمة متجها صوب مقاطعة شانشي.

وهذه الدقيقة القصيرة تبدد سكون قرية «تاي أرقو» الذي عهدته في الماضي. وكان أهالي القرية قد اعتادوا دائما - فيما مضى - على الخلود إلى النوم بعد طعام العشاء، كأنما ينصاعون إلى أوامر الجبل التي يصدرها بلا ضجة في آن واحد، ثم تشهد بيوت القرية الحجرية الصغيرة الهدوء على حين غرة، وفي اللحظة نفسها تغرق في السكون العميق والحقيقي على هذا النحو، كأنها تسرد قصة ورعها وتقواها للجبل الضخم في تؤدة وأناة. واليوم، الفتيات في هذه القرية يحملن الطعام إلى الطاولة توا، ثم تصيبهن الحيرة والارتباك، ويتناولن ما تيسر من الطعام وهن شاردات اللب، ويلقين سلطانيات الطعام جانبا ويشرعن في ارتداء الثياب الأنيقة. ويغلسن وجوههن المتوردة غليظة القسمات التي تعرضت للتراب الأصفر والغبار طوال اليوم، ويمشطن شعرهن الفاحم اللماع، ثم يتسابقن في ارتداء أجمل اللباس. ويلبس بعضهن الأحذية الجديدة المخصصة للاحتفال برأس السنة، ويطلي بعضهن وجوههن بمساحيق التجميل. وعلى الرغم من أن القطار عندما يصل إلى المحطة يكون الليل أرخى سدوله على القرية، بيد أنهن ينخرطن ويفكرن مليا في الكساء والحلي وملامحهن، ثم يهرولن إلى مدخل القرية والأمكنة التي يمر بها القطار. وكانت الفتاة شيانغ شيويه - دائما - أول من تغادر بيتها وتسرع إلى هناك،

ثم تتبعها جارتها وتدعى فنغ جياو.

وفي الساعة السابعة، يلهث القطار ويسرع الخطى متجها ناحية قرية «تاي أرقو»، ثم تقرقع عجلاته وتزأر صفارته في الفضاء بصورة عشوائية، وتهتز أركان عرباته حتى يقف ويتسمر في مكانه. وتتدفق الفتيات نحو الأمام وقلوبهن تقفز بين ضلوعهن على غرار مشاهدة فيلم سينمائي، ويقفن بجوار النافذة للفرجة والانتظار. أما شيانغ شيويه، فكانت الفتاة الوحيدة التي تقبع في الخلف، وتسد أذنيها بيديها بإحكام شديد، وتهرول إلى صدارة الصف عندما ترى القطار، ولكنها تنكمش وتتقهقر إلى الخلف عندما يأتي القطار، وتنتابها مشاعر الخوف جراء القاطرة الضخمة المفعمة بالقوة والحيوية، وتنفث الدخان الأبيض كأنها تلتهم القرية في بطنها في نفس واحد. كما أن زئير القاطرة الذي يهز السماء والأرض جعلها تشعر بالخوف أيضا. وعندما تقف أمام القاطرة كانت دائما مثل عشبة صغيرة تفتقر إلى الجذور.

الفتاة فنغ جياو تسحب شيانغ شيويه وتشير إلى امرأة في القطار رأسها مرصع بحلقات ذهبية، وتقول: «يا شيانغ شيويه، تعالي هنا، انظري!».

تنظر شيانغ شيويه بعينين نصف مغمضتين قليلا، وتقول: «كيف لا أرى؟».

فنغ جياو تكتشف شيئا جديدا، وتقول: «إنها المرأة التي تجلس في الداخل، تلك المرأة ذات الوجه الكبير البيضاوي. انظري، وفي يدها ساعة أصغر من غطاء الظفر!».

لم تنبس شيانغ شيويه ببنت شفة وتطأطئ رأسها. وأخيرا، رأت تلك المرأة التي ترصع رأسها بحلقات ذهبية، وفي معصمها ساعة يد أصغر من غطاء الظفر أيضا. ولكن سرعان ما اكتشفت أشياء جديدة أخرى. اكتشفت «حقيبة مدرسية جلدية»، وتشير إلى حقيبة مدرسية عادية مصنوعة من الجلد الأسمر الاصطناعي. وهذا النوع من حقائب الطلاب يظهر للعيان جليا في أي مكان في المدن الصغرى.

وعلى الرغم من أن اكتشاف شيانغ شيويه لم يحظ باهتمام الفتيات دائما، بيد أنهن يحضرن ويلتففن حولها.

تصدر فنغ جياو صرخة حادة وتلقي باللائمة على فتاة تتزاحم بحثا عن موطئ قدم، قائلة: «آه، دست على رجلي!»، حيث إنها تحب الصراخ دائما عندما تخاف.

لا تبدي الفتاة الملومة ضعفا، وتقول: «علام هذا الصراخ، أتريدين جذب انتباه صاحب الوجه الأبيض الصغير، وتدخلين في الحديث معه؟».

تسبها فنغ جياو، وتقول: «أقطع لسانك!»، ولكن عينها بصورة غير إرادية ترقب باب عربة الركاب الثالثة.

عامل القطار الشاب صاحب البشرة البيضاء ينزل فعلا من الباب. وقامته عالية، وشعره أسود فاحم، ويتفوه بكلمات معسولة من لهجة بكين. وربما جعل ذلك الفتيات يطلقن عليه سرا لقب «لهجة بكين». العامل الشاب يحمل مرفقيه بين يديه، ويقف ليس بعيدا ولا قريبا من الفتيات، ويقول: «هيه، أيتها الفتيات الصغيرات لا تمسكن بالنوافذ درءا للخطر!».

فنــغ جياو تــرد إليه الجميل، قائلــة: «آه، نحن صغيرات، وأنت عجوز، أليس كذلك؟».

تنفجــر الفتيات فــي نوبة من الضحــك والقهقهة، ولا نعرف مــن هــي الفتاة التــي دفعت فنغ جيــاو بعنف إلى الأمــام، وكادت تصطدم بالعامل الشــاب. وعزز ذلك - في المقام الأول - جســارة فنغ جياو بشكل أكبر، وبادرته بالسؤال التالي: «هيه، تمكث كثيرا في القطار، ألا تشعر بالدوار؟».

وتشير فتاة أخرى إلى مروحة في عربة الركاب، وتسأله أيضا: «ما فائدة ذلك الشيء المعلق في سقف العربة ويشبه لقمة الأداة القاطعة؟».

«وأين تغلي الماء؟».

«وماذا تفعل إذا قادتك عجلات القطار إلى مكان بلا قضبان؟».

شــيانغ شــيويه تقتفي أثر الفتيات في الخلف وتسأل العامل بصــوت خفيض قائلــة: تتناول كم وجبة طعام فــي اليوم الواحد في مدينتكم؟».

العامل الشــاب يقع في شرك شبكة الفتيات، ويهمهم وهو في غاية الحرج والارتباك، قائلا: «فتيات حسناوات حقا!».

القطــار ينطلق حــالا، وآنذاك تفســح الفتيــات الطريق أمام العامــل الشــاب ويطلقــن ســراحه. ينظر في ســاعته تــارة، وتــارة أخــرى يهرول نحو بــاب العربة حتى وصل إلــى المدخل، ويلتفت إليهــن مرة أخرى، ويقول: «المرة القادمــة أخبركم، المرة القادمة!» ويصعد إلى العربة بمهارة بفضل خطوات ساقيه الطويلتين، ثم نســمع جلبة أصوات متقطعة وهمهمة وقعقعة العجلات، وأبواب

القطــار الخضــراء توصــد ببطء شــديد أمام الفتيــات. القاطرة تختــرق الظــلام وتقصي وراءهــا الفتيات على جانبــي القضبان البــاردة. ولاتــزال الفتيــات - بعــد فتــرة طويلــة - يســتطعن الإحساس بحركة القاطرة التي تسير بسرعة أكثر فأكثر.

كل شيء يسترد هدوءه وسكونه، الهدوء الذي يجعل المرء يشعر بأنــه فاقد الهمة. تعــود الفتيات أدراجهن إلــى بيوتهن، ويحتدم النقــاش بينهن ولا يعرفن طعم الراحة على طول الطريق جراء مناقشة سفائف الأمور:

«من يعرف عدد الحلقات الذهبية التي شبكتها تلك المرأة في رأسها؟».

«ثماني حلقات».

«تسع حلقات».

«كلا!».

«بالتأكيد تسع حلقات!».

«فنــغ جياو، أأنت تجيبين عن السؤال؟».

تنكــت إحــدى الفتيات على فنــغ جياو، وتقول: «هــي! مازالت تفكــر فــي العامل الشــاب صاحــب الكلمات المعســولة في «لهجة بكين»!».

تنبــري فنــغ جيــاو قائلــة: «اذهبي إلــى الجحيم، يحلــم بهذا الشــاب من يتفوه بمثل تلك الكلمات»، ثم تقبض بشــدة على يد شيانغ شيويه في إشارة إلى أنها تطلب مساعدتها.

تلتــزم شــيانغ شــيويه بالصمــت، وتشــعر بالارتبــاك، وتعلو وجههــا أمــارات الحمــرة. إنها في الســابعة عشــرة مــن عمرها

فقـط، ولـم تتعلم بعـد كيفية مد يد المسـاعدة والعون للآخرين في معالجة مثل هذه الأمور.

لاتـزال تلـك الفتاة تداعب فنـغ جياو، وتقـول: «وجهه ناصع البياض حقا!».

وتقـول فتاة قابعة في الظلال السـوداء: «بشـرته بيضاء لأنه يختفـي داخل تلك العربة الخضراء الكبيرة. ندعوه للإقامة في قريتنا بضعة أيام، ونرى ما يحدث لبشرته».

«لا يمكـن، أهالـي الحضر يعتمـدون على الانـزواء. وإذا أردنا مناقشـة البشـرة البيضـاء، نطلـب عقـد مقارنـة بينهـم وبـين فتاتنا شـيانغ شـيويه. بشـرة شـيانغ جميلة بالفطرة. خصوصا عنـد مقارنتها ببشـرة الفتيـات اللواتي يركبن القطـار ويجعدن شـعورهن لتصبـح ملفوفـة ملتوية، نجـد تعليقات كثيـرة بعدم التحبيذ! «شـيانغ شـيويه رائعة الجمال حقـا»! الأخـت الكبرى فنغ جياو، ما رأيك، أليس كذلك؟».

فنـغ جيـاو لا تقبـل كلامهـا وتحرر يد شـيانغ مـن قبضتها. ويبـدو أن الفتيـات يقللن من قدر شـخص ينتمي إليها، وتشـعر - بالإنابـة عنه - بالسـخط عليهن في سـويـداء قلـبها حـقا. ولا تدري كيفية معالجة هذا الأمر، وتجزم أن بشرة وجهه بيضاء بالفطرة، وليس جراء الاختفاء والانزواء إطلاقا.

الفتاة شيانغ شيويه تمد يدها رويدا رويدا إلى بطن راحة فنغ جياو، إيعازا للأخيرة بأن تقبض بإحكام على يدها، كأنها تطلب منها الصفح لأنها ظلمتها وسببت لها مشاكل.

لاتزال تلك الفتاة تقول: «يا فنغ جياو، أأنت بكماء؟».

تقول فنغ جياو بلهجة غليظة: «من البكماء؟! الأبكم هو من يكون مثلكم يركز نظراته على الوجوه البيضاء والوجوه السمراء للآخرين. أنتن تحبُون وتستطعن اقتفاء أثر الآخرين!».

«نحن لا نقترن بهؤلاء الأناس!».

«الشخص الذي تعلقين عليه الأمل ليس صديقا حميما، ولا تربطكما علاقة غرامية، أليس كذلك؟».

وتفترق الفتيات في جو مفعم بالود والصداقة بغض النظر عن الشجار حامي الوطيس بينهن طوال الطريق، وذلك لأن الفكرة التي تجعل كل فتاة بالغة التأثر تلمع في قلبها، وهي القطار يمر هنا غدا، والفتيات يتمتعن بدقيقة رائعة، والمقارنة بين الشجار ورؤية القطار، هل يعتبر حدوث بعض الجلبة والقليل من المفاجأة أمرا جديا؟

آه، دقيقة تشرق بالبهجة والعظمة، تجعل نفسك مملوءة بالأفراح والأتراح، والسعادة والتعاسة تجاه الفتيات في قرية «تاي أرقو»!

ومع تقادم الزمن، أصبحت هذه الدقيقة أكثر بهجة وسعادة، ولا تتوقع الفتيات ذلك، حيث يحملن السلال المستطيلة التي تشبه أغصان الصفصاف بأذرعهن، والسلال مملوءة بالجوز، والبيض، والبلح الصيني الكبير، ويقفن أسفل نوافذ القطار، ويقضين الوقت في المتاجرة مع ركاب القطار بطريقة مهذبة ولطيفة. كما يقفن على رؤوس أصابعهن، ويمددن أذرعهن عاليا، ويرفعن سلال البيض والبلح الأحمر إلى النوافذ، لمقايضتها بالأشياء التي قلما توجد في قرية «تاي أرقو» من الشعرية

الجافة، وأعواد الثقاب، فضلا عن الأشياء الخاصة بالفتيات من دبابيس الشعر، والصابون. وفي بعض الأحايين، تواجه بعض الفتيات المعاناة من التعرض للسب والشتم عندما يرجعن إلى منازلهن، ويتاجرن في المناديل الشاش المتعددة الألوان والأشكال، وجوارب النيلون المحبوكة والمرنة.

ويبدو أن الفتاة فنغ جياو عنيت عن قصد من قبل الفتيات للمتاجرة مع العامل الشاب الذي يطلق عليه «لهجة بكين»، وكل مرة تحمل السلة وتذهب إليه، ويقومان بالبيع والشراء ببطء وتثاقل شديدين عن قصد أيضا. وعندما يوشك القطار على الانطلاق تعطيه سلة البيض. وإذا تعجل وأخذ البيض وغادر القرية، فإنه يدفع ثمنه عندما يلتقيان في المرة المقبلة. ويحمل ذلك في طياته معنى كافيا بصورة أكبر. وإذا قدم إليها حزمة من الشعرية الجافة ومنديلين من الشاش، فإن فنغ جياو بالتأكيد تخرج نصف كيلو جرام من الشعرية وتعيده إليه. وتشعر بأن تصرفها على هذا النحو هو الطريقة الوحيدة التي تجعلها لا تقصر في تعاملاتها معه، وترغب في مثل تلك العلاقات التي تختلف عن ممارسة التجارة بصفة عامة. ويجول بخاطرها أحيانا كلمات الفتيات: «الشخص الذي تعلقين عليه الأمل ليس صديقا حميما ولا تربطكما علاقة غرامية، أليس كذلك؟». وفي الواقع، هي لا يعنيها إذا كان الصديق الحميم موجودا أو لا ؟ فهي لم تفكر البتة في الزواج منه. ولكنها ترغب في معاملته معاملة حسنة. أليس من اللازم أن يعاملها الصديق الحميم الكفؤ بمثل تلك المعاملة؟

الفتاة شيانغ شيويه عادة لا تتحدث كثيرا، وهي متخوفة متهيبة أيضا، ولكنها من الفتيات اللاتي يشتغلن بالتجارة بلا أي عائق أو تعكير. ويحب الركاب شراء السلع التي في جعبتها، لأنها ترمقك بكل ثقة على هذا النحو، وتخبرك عيناها الصافيتان مثل البللور أن الطفلة التي تقف أسفل نافذة القطار لا تعرف أبدا الغش والخداع، كما لا تعرف كيفية المساومة، ولسان حالها يردد فقط: «انظر إلى السلعة وادفع كما يتراءى لك». انظر إلى وجهها الصافي النقي كأنه ولد توا قبل دقيقة، وانظر إلى شفاهها الغضة التي تشبه حرير الساتان الأحمر، وتنبثق من قلبها المشاعر الجميلة الرائعة، ولا يطاوعك قلبك أن تحاول التنصل من المسؤولية أمام هذه الفتاة، والأشخاص المدققون في الحساب وتقييم الأشياء يصبحون أمامها من ذوي الكرم والسخاء.

وكانت الفتاة شيانغ شيويه - بين الحين والحين - تقبض على تلابيب الوقت وتتقصى من ركاب القطار ماهية الأحوال خارج القرية، وتسألهم إذا كانت جامعة بكين ترغب في أن يلتحق بها أبناء قرية «تاي أرقو» أو لا، وتستفسر عما يطلق عليه «الموسيقى المرفقة لإنشاد الشعر» (قرأت ذلك بالمصادفة في كتاب فوق الطاولة المشتركة). وذات مرة، سألت امرأة في أواسط العمر وتلبس نظارة، عن مقلمة تفتح وتغلق أتوماتيكيا، كما سألت عن ثمنها. ولا يدور بخلد أحد أن القطار لا ينتظر أن تتلقى إجابة من الركاب ويطلق العنان لعجلاته، وتهرول وراءه إلى مكان ناء، ولم تدرك الكف عن الهرولة إلا عندما دوى في أذنيها زئير ريح

الخريف وقعقعات عجلات القطار في آن واحد. وكم كان سلوكها هذا مضحكا ومثيرا للسخرية!

القطار لم يبد له أثر في طرفة عين. تلتف الفتيات حول شيانغ شيويه، ويشعرن بالغبطة عندما يعرفن السبب الذي جعل شيانغ تهرول وراء القطار وملاحقته.

«فتاة حمقاء!».

«أمر لا يستحق!».

شيانغ شيويه لا تقر أنه بسبب موضوع تافه، تلقي باللائمة على نفسها لأنها لم تقتنص الوقت، وتقول: «ألوم نفسي، تباطأت وسألت ببطء».

تحمل فنغ جياو السلة بدلا من شيانغ شيويه، وتقول: «هه، كان سؤالك معقولا!».

وتقول إحدى الفتيات دفاعا عن شيانغ شيويه: «من الذي قال إن فتاتنا شيانغ شيويه طالبة؟».

ومردود هذا الكلام يرجع إلى أن شيانغ شيويه طالبة، وكانت الوحيدة في القرية التي اجتازت الامتحان والتحقت بالمدرسة الإعدادية.

قرية «تاي أرقو» تفتقر إلى المدارس. وتذهب شيانغ شيويه إلى المدرسة كل يوم في كومونة تبعد عن القرية بنحو سبعة كيلو مترات. وتتجاذب أطراف الحديث دائما مع الأخوات في القرية على الرغم من أنها لا ترغب في الكلام. والمدرسة الإعدادية في الكومونة لا تضم الكثير من الأخوات، وعلى الرغم من أن عدد الطالبات ليس قليلا، ولكن سلوكهن وكلامهن، وتعابير عيونهن،

وضحكاتهن الخفية تبدو كأنها تجعل شـيانغ تدرك أنها أتت من قريـة صغيرة وفقيرة. ويتعمدن سـؤالها مـرارا وتكرارا: «أنتم في القريـة تتناولـون كم وجبة في اليوم؟»، ولا تعي شـيانغ غرضهن وتجيـب بجدية: «نتناول وجبتين»، ثـم ترمقهن بنظرات حميمة وودية وترد على سؤالهن بسؤال: «وأنتم؟».

تجيـب الطالبـات في كل مرة بثقة وشـجاعة: «ثلاث وجبات!» ثم لا يظهرن شـعورهن من الشـفقة والغضب إزاء بلادة شـيانغ وفهمها البطيء.

كما تسـأل الطالبات شيانغ: «تذهبين إلى المدرسة، ولماذا ليس معك مقلمة؟».

تشـير شيانغ شـيويه إلى زاوية الطاولة، وتقول: «أليست هذه مقلمة؟!».

فـي الواقـع، تعـرف الطالبـات مسـبقا أن المقلمـة الخشـبية الصغيـرة فـوق زاويـة الطاولـة هـي مقلمـة شـيانغ، ومـع ذلك يتظاهـرن بالدهشـة، وكلمـا حـان الوقـت المحـدد، تلهو شـيانغ بمقلمتهـا الكبيـرة المصنوعة من البلاسـتيك الزبدي (الرغوي) والموجـودة فوق الطاولة المشـتركة وتحدث طقطقـة مدوية. إنها مقلمة تسـتطيع أن تقفل أتوماتيكيا. وأدركت شيانغ - بعد فترة طويلـة - أن السـبب الذي يجعـل المقلمة تغلـق أتوماتيكيا أنها تحتـوي على مغناطيس ليس كبيرا ولا صغيرا. ومقلمة شـيانغ الخشبية الصغيرة صنعها أبوها النجار خصيصا من أجلها بعد أن نجحـت فـي امتحـان الالتحاق بالمدرسـة الإعداديـة، وتعتبر فريـدة لا مثيـل لها في قرية «تاي أرقـو»، ولكن مقارنتها بمقلمة

الطاولـة المشـتركة هنا، لماذا تبـدو بليدة وباليـة؟ وعندما تحدث طقطقة تتقلص خوفا وخجلا في زاوية الطاولة.

قلب شـيانغ شـيويه لـم يعد قـادرا علـى الهدوء مـرة أخرى، كأنها أدركت على غرة مغزى الأسـئلة المتكررة من قبل أترابها في المدرسة. كما أدركت أن قرية «تاي أرقو» فقيرة جدا. وأدركت - في المقـام الأول - أن ذلـك ليس جديـرا بالاحترام، حيـث إن رفقاء الدراسة يتحلون بالجرأة على سؤالها مرة بعد مرة جراء الفقر. ترمـق شـيانغ المقلمـة فـوق الطاولة المشـتركة بنظـرات محدقة وتخمـن أنها جاءت مـن مدينة كبيرة نائية، كما خمنت أن ثمنها غيـر عادي ولا يسـتهان بـه بالتأكيد. هل يمكـن الحصول عليها مقايضـة مقابـل ثلاثـين بيضـة، أو أربعين أو خمسـين؟ يغوص قلبها في أعماقها آنذاك ولسـان حالها يردد: كيف أفكر في مثل هذه الأشياء؟ الأم تدخر البيض ليس من أجل أن نطلب منها أن تطرح فكرة بصورة عشوائية! ولكن، لماذا مشهد صوت الطقطقة الذي ينبثق من المقلمة مازال يدوي في أذني ولا ينتهي؟!

فـي ذروة الخريـف يصبح النسـيم الجبلـي بردا لاذعـا رويدا رويـدا، وتظلم السـماء مبكرا يوما بعد يوم. ولكن الفتاة شـيانغ شـيويه وأخواتهـا ينتظـرن قطـار السـاعة السـابعة فـي الوقت المحـدد. ويسـتطعن ارتـداء السـترات المحشـوة بالقطـن. وفنـغ جياو تشـبك في رأسها دبوس الشـعر الوردي الفاتح المصنوع من بلكسيجلاس (Organic Class)، وذيل ضفيرة شعرها ملفوف بربـاط مطاطـي محشـو بالحرير. وحصـل فتيـات القرية على هذه الأشـياء مقابـل مقايضة البيض والجوز مـع ركاب القطار.

ويتهذبن ويتزين على غرار الفتيات اللاتي يركبن القطار، ويصطففن بصورة منتظمة على جانبي السكة الحديد مثل من يترقب الترحيب بضيف عزيز قادم من مكان بعيد، أو مثل الاستعداد لقبول الاستعراض من قبل الآخرين.

القطار يقف ويصدر تنهيدة طويلة وعميقة كأنه يشتكي من برد قرية «تاي أرقو». واليوم يبدي عدم اكتراثه القليل تجاه هذه القرية، نوافذ القطار موصدة كلها بإحكام، والركاب - في ضوء شاحب هزيل - يحتسون الشاي ويقرأون الجرائد، ولا يلقي أحد نظرة خاطفة خارج النافذة. ويبدو أن هؤلاء الأناس الذين أصبحوا مألوفين واعتادوا ركوب هذا الخط الحديدي قد نسوا فتيات هذه القرية.

تهرول فنغ جياو - كالعادة - إلى عربة الركاب الثالثة وتبحث عن زبونها العامل الشاب المعروف بـ «لهجة بكين». أما الفتاة شيانغ شيويه تربط رأسها بشال أحمر أرجواني بإحكام شديد، وتبدل السلة ذات الذراع المقوسة من يد إلى أخرى، وتهرول بلا توقف على امتداد القطار الرابض في المحطة. ووقفت عاليا على أقصى أطراف أصابعها أملا أن يرى وجهها ركاب العربة. ولم يكتشف أحد في القطار وجودها، ولكنها عثرت على شيء تتوق إليه منذ ردح طويل فوق طاولة صغيرة تكتظ بالمواد الغذائية. واكتشاف ذلك الشيء جعلها لا تفكر في الهرولة نحو الأمام، وتضع السلة على الأرض، وتتسارع نبضات قلبها، وتتعلق بيديها في إطار النافذة بقوة، وترى بجلاء أن ذلك الشيء هو مقلمة حقا، مقلمة أتوماتيكية تحتوي على حجر مغناطيسي.

شـيانغ تقترب من المقلمة على هذا النحو، وتستطيع أن تلمسها إذا مدت يدها، وإذا لم يفصلها الزجاج عنها.

تأتي عاملة القطار الشابة وتجر الفتاة شيانغ شيويه. شيانغ تحمل السـلة بذراعها وتقف بعيدا، وتستمر في المراقبة. وعندما تأكـدت شـيانغ تمامـا أن المقلمة تخـص الفتاة التـي تتكئ على النافـذة ومظهرهـا يدل علـى أنها طالبة، هرعـت بحزم وطرقت الزجاج، الطالبة تدور وجهها وترى سلة شيانغ ذات الذراع المقوسة، وتقوم على استحياء بدفع شيانغ وتلوح بيدها معترضة في إشارة على أنها لا تفتح نافذة القطار إطلاقا. ولا تدري شـيانغ السبب الـذي جعلها تهرول صـوب باب القطار، وعندما تسـمرت قدمها أمـام المدخل، مسـكت الحاجز بقـوة، ولايزال يكتنفهـا قليل من التردد عندما كانت تبغي الهرولة، إذن، الرائحة العطرية النفاذة الدافئـة التي تنبعث من العربـة، ورائحة القطار الخاصة وطدتا أركان الثقـة داخـل نفسـها، وتتعلـم من حـركات العامل الشـاب المعـروف بـ «لهجـة بكين»، ووثبـت ببراعـة. الفتاة شـيانغ تعتزم القفز إلى داخل عربة القطار بأقصى سـرعة، إنها تستغل أقصى سـرعة في مقايضة البيض مقابل الحصـول على المقلمة. وربما مـن أجل ذلك تسـتطيع اتخاذ قـرار الصعود للعربـة في غضون دقائـق قليلـة، لأن في جعبتها الكثير من البيـض، لديها أربعون بيضة.

وأخيرا، بإقدام تصعد شيانغ شيويه على جسد القطار، وتشد السـلة بقـوة، وتخطـو خطـوة كبيـرة نحو بـاب القطـار بحرص شـديد. وفـي هذه الأثنـاء، تهتز عربات القطار فجـأة، ثم توصد

الأبواب. وعندما أدركت شيانغ ما يحدث أمام عينيها، كان القطار ودّع قرية «تاي أرقو» رويدا رويدا. وتنكب على باب القطار، وترى وجه فنغ جياو أسفل القطار في ومضة البرق. ومن الجلي أن ذلك ليس حلما، بل كل شيء حقيقة، لقد غادرت فعلا أخواتها، ويلتحم جسمها بالقطار المألوف لديها، وغير المألوف أيضا. وتضرب الزجاج بيدها، وتصرخ صوب فنغ جياو، وتقول: «يا فنغ جياو! ما العمل، ماذا أستطيع أن أفعل؟!».

يحمل القطار شيانغ شيويه بلا هوادة، ويمرق فوق القضبان، ويخلف وراءه قرية «تاي أرقو» في لمحة بصر. والمحطة القادمة شانشي كو تنأى عن هذه القرية بخمسة عشر كيلو مترا.

وفي الواقع، أن مسافة خمسة عشر كيلو مترا ليست طويلة بالنسبة إلى القطار والسيارة. وعندما يتجاذب الركاب أطراف الحديث يكون القطار وصل إلى محطة شانشي كو، والركاب الذين يصعدون القطار في هذه المحطة ليسوا قلة، وينزل من عربته راكب واحد فقط، إنه الفتاة شيانغ شيويه، ولا توجد في ذراعها تلك السلة، فقد حشرتها أسفل مقعد تلك الطالبة.

الفتاة شيانغ - في القطار - تعلو وجهها أمارات الحمرة، وعندما قررت أن تخبر الطالبة أنها تريد أن تقايضها بالبيض، وتحصل على المقلمة، كانت الطالبة لا تدري لماذا الحمرة تعلو وجهها، وهي توافق أن تعطي شيانغ المقلمة بالتأكيد، وذكرت أنها تقيم في المدرسة وتأكل في مطعمها، ولا تحتاج أن تأخذ البيض إلى هناك، وتخشى أن شيانغ لا تصدقها، ثم أشارت إلى الشارة المدرسية الموجودة على صدرها ومكتوب عليها: «كلية التعدين».

وعلـى كل حـال، تشـعر شـيانغ بأنهـا مازحـت الطالبـة ممازحة خشـنة، أليـس عندها بيت بالإضافة إلى المدرسـة؟ شـيانغ تلهو بالمقلمـة تـارة، وتارة أخرى تقـدح زناد ذهنها أن قريـة «تاي أرقو» أكثـر فقرا، ولكنها لم تأخذ أشـياء الآخرين من دون مقابل قط. وقبـل أن يتوقـف القطار وتهتـز عرباته لمدة بضع دقائق، تحشـر شيانغ السلة فجأة أسفل مقعد الطالبة، وتترك المكان بسرعة.

ركاب القطـار ينصحـون الفتـاة شـيانغ أن تقضـي ليلـة فـي محطة شانشـي كـو، ثم تعود إلـى قرية «تاي أرقـو». كما أخبرها الشـاب العامـل المعـروف بـ «لهجـة بكـين»، وصاحـب النخـوة والحماسـة أن أقارب زوجته يقطنون في هذه المحطة. شـيانغ لم تمكـث ليلة هنـاك، بل لم تعتزم الإقامة لدى أقـارب هذا العامل الشاب، وكلماته جعلتها تشعر بأنها سببت مشاكل له، كما شعرت بأنهـا ظلمـت فنغ جياو، وجارت علـى قريتها. وفكرت من صميم قلبهـا أن تعـود أدراجهـا مترجلة في أسـرع وقت ممكـن، وتذهب إلى المدرسـة غدا بكل شـجاعة وثقة، وتفتح «الحقيبة المدرسـية» بـكل جـرأة ولا وجل وتضعها فـوق الطاولة. والنـاس في القطار لا يدركـون أن زئيـر القطار قـد جعلها مثل الأيـل الصغير الذي أصابته الدهشـة، وأصبحت حائرة ومرتبكة. بل لا يدركون بشكل أكبـر القـوة العظيمـة الكبيرة التـي تتحلى بها طفلـة تربت في أحضان الجبل أمام ذلك الجبل الضخم والليل حالك الظلمة.

ينطلـق القطـار مـن محطـة شانشـي كو ويتلاشـى بسـرعة، ويترك أمام الفتاة شيانغ مساحة فسيحة الأرجاء. تنقض الريح الباردة على شيانغ وتعصر جسمها النحيل. تلملم أطراف الشال

المتدلي على منكبيها وتربطه بإحكام فوق رأسها، ويتقلص جسمها فوق القضبان. وتعاني من المخاوف العديدة والمختلفة، فمنذ نعومة أظافرها تخاف من الشعر، وجسدها يلتصق به شعرة لا تستطيع التخلص منها، كما تنسال دموعها بسرعة. وعندما شبت عن الطوق، تخشى أن تجلس بمفردها في صحن الدار في المساء، وتخاف من اليسروع، وتخشى الدغدغة (كانت فنغ جياو الأكثر حبا لاستعراض مهارتها في الدغدغة مع شيانغ شيويه). والآن تخشى شيانغ بلدة شانشي كو الغريبة بالنسبة إليها. وتخشى الجبال الضخمة القابعة في الظلام في الجهات الأربع، وتخاف من السكون الرهيب الذي يثير نبضات القلب، وعندما تهب الريح على الغابة الصغيرة الواقعة في مكان قريب تنتابها المخاوف أيضا. كما تخاف من صوت حفيف الأشجار المنبعث من الغابة الصغيرة. وتجتاز الكثير من الغابات الكبيرة والصغيرة على امتداد الطريق الذي تقطعه عندما تعود أدراجها إلى دارها مترجلة!

يبزغ القمر في كامل استدارته، ويسطع ضوؤه على الوادي الجبلي الهادئ. والطريق الرمادي الصغير يسطع نوره على الحشائش الذابلة أيام الخريف وجذور الأشجار الضخمة، بالإضافة إلى أجمة من الأشواك الجبلية، والصخور البارزة، فضلا عن أرتال من الأشجار التي تغص بها الجبال والسهول، وعلبة صغيرة تتلألأ وتلمع في يد الفتاة شيانغ.

في هذه الأثناء فقط، ترغب شيانغ في أن ترفع العلبة عاليا وتتفرس ملامحها بالتفصيل. وراحت تفكر لماذا تركب القطار،

ولـم يدر بخلدها أن تخرج من جعبتهـا العلبة وتمعن النظر في جمالها، أليس كذلك؟ والآن، وفي ضوء القمر الوضاء، تستطيع أن تـرى بجـلاء لونهـا الأخضـر الفاتح، ومرسـوم علـى غطائها زهرتان ناصعتا البياض من كستناء الماء واللوتس. وتفتح العلبة بحـرص شـديد، وتربتهـا بلطف شـديد على الغطـاء على غرار مقلمة الطاولة المشـتركة، وتحدث «طقطقـة»، ثم تغلقها إغلاقا محكمـا، ثـم تفتح العلبة مـرة أخرى، وتدرك أنـه يجب أن تضع حالا في العلبة بعض الأشـياء داخلها. وتسـتل من جيبها علبة صغيـرة بها زيـت دهان الوجه وتضعها داخـل المقلمة، ثم تغلقها مـرة أخـرى. وفي ذلك الحين، شـعرت بأن المقلمـة أصبحت ملكا لها فعلا. وراحت تفكر في الغد، وعندما تذهب إلى المدرسة غدا، تتوق إلى أن يسألها أترابها مرة تلو الأخرى!

تنهض الفتاة شـيانغ واقفة، وتشعر بالرضا في سويداء قبلها فجأة. كما أصبحت الريح رقيقة ولطيفة إلى حد بعيد. ووجدت ضـوء القمـر الوضـاء على هـذا النحـو، ونوره يخفي السلاسـل الجبليـة مثـل صـدر الأم المهيـب المقـدس. وريـح الخريـف تهب وتجفـف أوراق أشـجار الجوز التي تتلوى مثل الأشـجار الذهبية وتصدح بالغناء وصوتها رنان في الليل وتشجعها الريح، وتسـتمع إليها شيانغ بوضوح للوهلة الأولى. لم تعد شيانغ تشعر بالخوف مرة أخرى، وتسـير فوق عوارض السـكة الحديدية بخطى واسعة وتتقدم إلى الأمام. تمشي شيانغ كأنها – للمرة الأولى – تتعرف إلـى الـوادي الجبلـي الذي تربـت فيه وكبـرت وأصبحـت بالغة، ولسـان حالهـا يـردد: «الجبـل الضخـم يبـدو عملاقا علـى هذا

النحو! والقمر الوضاء هكذا! وأشجار الجوز رائعة أصلا! وأنت يا قرية «تاي أرقو» لا أعرف أحوالك الآن، وتسرع خطواتها على امتداد الطريق. ترى القرية بتلهف شديد وبشعور غريب لم تعرفه من قبل. والأحوال في القرية بالتأكيد على هذا النحو: لم تعد الصبايا في القرية في ذلك الحين يتوسلن إلى الآخرين، ولا توجد ثمة ضرورة للإجابة عن الأسئلة المتكررة التي تعتمل داخل نفوسهن، وتسعى الفتيات الحسناوات في القطار إلى أبوابه، والقطار يقف طويلا بعض الشيء، ربما لمدة ثلاث أو أربع دقائق، وربما ثماني أو تسع دقائق، وتفتح أبوابه ونوافذه أمام أهالي قرية «تاي أرقو». وإذا واجه المرء بالمصادفة مثل الأحوال التي وقعت مساء اليوم، فينزل من القطار بهدوء وأناة.

ماذا حدث في قرية «تاي أرقو» مساء ذلك اليوم؟ حسنا، القطار سحب شيانغ شيويه، فلماذا الآن تتذكر ركوبها القطار مثل اللهو بالدمية؟ ولم يعد في جعبتها أربعون بيضة، وماذا يكون رأي أمها؟ ألم يَتُق والدها كل يوم إلى من يتقدم ويخطب ابنته ويتزوجها؟ حينئذ، سيكون منهمكا في عمل مستدام ويستطيع صقل ظهره مثل النحاس الوردي، ويعمل ليلا ونهارا ويصنع صناديق العرائس، وطاسات المطبخ، وصناديق خشبية، ويكسب المال من أجل النفقات الدراسية لابنته. وتسمرت أقدام شيانغ عندما جال بخاطرها مثل هذه الأمور. ويبدو ضوء القمر شاحبا، وأصبحت عوارض السكة الحديدية أسفل قدميها غير واضحة المعالم. ماذا تقول عندما تعود إلى منزلها؟ وتلتفت إلى السلاسل الجبلية حولها، فتجدها في صمت رهيب، وتجيل

نظرها صوب غابة أشجار الحور القريبة، فتسمع حفيف أوراقها يدوي في كافة البقاع، ولا تخبرها بنية صادقة ماذا يجب عليها أن تفعل. ومن أين يأتي صوت خرير الماء؟ وتبحث عن مصدر هذا الصوت، فتجده يأتي من نهير ضحل جدا يبعد بضعة أمتار عن القضبان. تمشي أسفل القضبان وتجلس القرفصاء على جانب النهير. وجال بخاطرها قبل أن تشب عن الطوق أنها ذات مرة كانت تغسل الملابس مع فنغ جياو على ضفة النهير، ورأت بالمصادفة عجوزا يتجر في حلوى السمسم. وفنغ جياو تنصح شيانغ شيويه أن تأخذ سترة بالية وتقايضها مقابل الحصول على بضع قطع من هذه الحلوى، وأوعزت إليها أن تخبر أمها أنها عندما كانت تغسل هذه السترة لم تنتبه جيدا ودفعها التيار في النهر ونأت بعيدا. تتوق شيانغ شيويه إلى تناول حلوى السمسم، ولكنها لم تقايض السترة بالحلوى في نهاية المطاف. وتتذكر أن ذلك العجوز انتظرها بكل صدق وإخلاص. ولماذا تتذكر مثل هذا الأمر البسيط؟ ربما الآن يجب أن تخدع أمها، لأن حلوى السمسم - على نحو من الأنحاء - لا يمكن مقارنتها بأهمية المقلمة. وتتطلع إلى أن تخبر أمها أن هذه العلبة الغالية من يستخدمها يستطيع أن يجد كل شيء كما يشتهي القلب، ويستطيع الالتحاق بالجامعة، يركب القطار ويذهب إلى أي مكان، ويجد كل ما يريده وتشتهيه النفس، ولا يسأله الآخرون كم وجبة تتناولها صبايا قرية «تاي أرقو» كل يوم. والأم تصدق كلامها لأنها لم تخدع الآخرين قط.

يصدح النهير بالغناء بصوت عال، وتتدفق مياهه وتندفع إلى

الأمـام، وترتطم بالصخـور، ويتطاير الرذاذ بـين الحين والحين.

شـيانغ شـيويه تسـرع السـير مرة أخـرى، وتأخذ حفنـة من ماء النهير وتغسـل وجهها، وتلمع شـعرها الذي بعثرته الريح بيدها المبللـة بالمـاء. المـاء بارد جـدا، ولكنها تشـعر بأن روحهـا المعنوية عالية. وتودع النهير، وتعود مرة ثانية للسير على السكة الحديد الطويلة جدا.

ماذا يوجد في الأمام؟ يوجد نفق يقف حائرا مذهولا، ويشبه العين السوداء للجبل الضخم. شيانغ شيويه تتسمر في مكانها، لكنها لا تعود إلى الوراء، وتفكر جيدا في المقلمة التي تحتضنها، وتفكر في نظرات الطالبات المدهشـة العجيبة. إن تلك النظرات يبدو أنها تشـرق وتتلألأ في جوف النفق. وتحني خصرها وتنزع عشبة يابسة وتحشرها في ضفيرتها الصغيرة، فقد أخبرتها أمها أن ذلـك يمكـن أن «يطرد الشـر». وبعد ذلك، تسـرع في خطواتها صوب النفق، وتقول بكل وضوح إنها تندفع إلى الأمام بكل قوة.

تشـعر شـيانغ شـيويه بحـرارة الجو كلما قطعت شـوطا من الطريـق، وتفك الشـال وتربطه حول عنقهـا، ولا تعرف كم كيلو متـرا قطعتـه مترجلة؟ ولكن هنـاك أصواتا يصدرهـا «الجندب الأمريكي» و«الجدجـد الحقلي» وتثير انتباهها دائما. وأين قرية «تاي أرقو»؟ وتحملق بنظرها إلى الأمام وترى على مرمى البصر بقعا سـوداء تتلوى فوق القضبان، تقترب قليلا من المشهد حتى ترى بوضوح هؤلاء الأناس، فتجدهم ثلة من الأشخاص يقبلون نحوهـا، وفنغ جياو في الصـدارة، وخلفها الأخوات والشـقيقات في قرية «تاي أرقو».

شيانغ شيويه تريد أن تسرع خطواتها قليلا، ولكن أقدامها لماذا أصبحت ثقيلة على غير العادة؟ تقف فوق العوارض الخشبية، وتدور رأسها نحو الخلف، وترى القضبان المستقيمة الممتدة على مرمى بصرها، القضبان تشع نورا جليا تحت توهج ضوء القمر، وتسجل بهدوء المسافة التي قطعتها شيانغ شيويه التي تشعر بالاضطراب في ذهنها بغتة، ولا تعرف لماذا تنفجر في البكاء؟ إنها دموع البهجة، إنها دموع الشعور بالرضا. ويبزغ في قلبها شعور بالفخر لم تعهده من قبل قبالة الجبل الضخم المهيب الجليل صاحب الأحضان الدافئة. شيانغ شيويه تكفكف دموعها بظهر يدها، وتنزع العشبة الصغيرة من ضفيرتها، ثم ترفع المقلمة، وتستقبل تلك الثلة من الفتيات اللاتي يقبلن نحوها.

تدوي صيحات الغبطة والسعادة من قبل الصبايا في الوادي الجبلي على حين غرة. ويصحن بصوت عال مرددات اسم «شيانغ شيويه»، وصوتهن يتدفق سريعا وحماسيا، والضحك يملأ أشداقهن، إنه الضحك الذي لا يعرف الخوف ولا يمكن إخفاؤه، والسلاسل الجبلية العتيقة تأثرت تأثرا بالغا واهتزت أركانها أخيرا، وينبثق منها صدى الصوت الخفيض العميق العريض البراق، وتهتف معهن بصورة مشتركة قائلة:

آه، أنت الفتاة شيانغ شيويه، شيانغ شيويه!!

من يستطيع أن يجعلني خجولة؟!

الزوجة تستخدم الهاتف بصورة مستمرة بعد أن تناولت طعام الإفطار، ولا تجلس على مقربة من الهاتف عند الاتصال، بل تأخذ ميكرفون الهاتف ذاهبة آيبة في الغرفة وتتحدث في الهاتف، حيث يوجد هاتف لاسلكي في قاعة الضيوف. ويبدو أن هناك سببين بصورة رئيسية وراء تصرفها من تحريك أقدامها في الغرفة، والنظر صوب الشرق تارة، وناحية الغرب تارة أخرى، أولهما أنها تستطيع أن تلقي نظرة خاطفة. كما تشاء. على هذه الشقة الجديدة المستنيرة التي مساحتها ليست صغيرة، وترى هل ينقصها شيء؟ وهل يوجد بها ما لا يسر الناظر إليها؟ أو بعبارة أخرى، هل الشقة كاملة ولا تحتاج إلى شيء، وتتلذذ العين بالنظر إليها. أما السبب الثاني، فهو - فيما يبدو - تقليد الممثلين في الأفلام الأجنبية وهم يتصلون هاتفيا، لاسيما تلك الممثلات البطلات اللواتي يأخذ معظمهن الهاتف وتملأن الغرفة حركات عشوائية، عندما يتصلن أو يستقبلن مكالمة هاتفية، فيتمايل سلك الهاتف الطويل جدا أمام أقدامهن أو خلفهن، ولا يظهرن التكلف، بالإضافة إلى الرضا عن النفس وهن شاردات اللب. وفي تلك اللحظة، تشعر الزوجة بالرضا إلى حد

ما، ولكن لا ترغب في الاعتراف بذلك. كما تشعر بأن الرضا عن نفسها يعد نوعا من الحالة النفسية المتهورة. وتشعر أيضا بأن أحوالها النفسية أكثر مثالية عن الإحساس بالقناعة الذاتية، إنها زوجة دون الأربعين عاما، إنها في سن يجمع بين طرفيه الرغبة المحمومة في التقليد، والرغبة المحمومة في الإبداع في آن واحد.

الزوجة التي تترجل في الشقة تندفع بسرعة إلى المطبخ، وتكتشف أن عبوة المياه المعدنية ذات اللون الأزرق الفاتح فوق مبرد مياه الشرب فارغة، وترى أنه يجب الاتصال هاتفيا بمحطة المياه، حيث إنها أنهت في التو المكاملة الهاتفية ذات المضمون الفارغ والتي تجريها حاليا. وشرعت في الاتصال برقم هاتف محطة المياه، ولكن لم تفلح في الاتصال، وميكرفون الهاتف يصدر - مرارا وتكرارا - صوتا آليا جافا جامدا يقول: الرقم الذي طلبته غير موجود في الخدمة أو تم تغييره. مزاج الزوجة يتعكر صفوه بعض الشيء. فقد تسلمت بنفسها عبوة المياه المعدنية «تشنغ لين شان» (جبل الروح الصافية) عندما قام المصنع بتسويق إنتاجه حتى باب البيت. ومنذ بضعة أيام اتصلت الزوجة هاتفيا تطلب إرسال المياه المعدنية، فكيف يكون «الرقم الذي طلبته غير موجود؟» إذن، يكون الرقم «قد تغير»، أليس كذلك؟ وهذا كلام غير معقول. وإذا تغير رقم الهاتف فلماذا لا يخبر المصنع الزبائن، ألا يعرف أننا نحتسي المياه المعدنية كل يوم. تتصل الزوجة أيضا بالرقم «١١٤» للاستفسار، وكان الرد: «الرقم الذي يستعلم عنه لم يدون في سجل الدليل»، الزوجة

تستشيط غضبا، وتتمتم وتغمغم بكلمات من هذا القبيل من رأس القلب مباشرة: «دكاكين فاشلة»، «دكاكين شريرة». وتذكرت في المرة السابقة أنها سمعت اقتراحا من الصبي الصغير الذي يرسل المياه المعدنية، أن الزوجة إذا اشترت منه عشرة كوبونات من المياه المعدنية تبلغ قيمتها مائة يوان صيني. وشعرت بأن ذلك مناسب آنذاك، حيث تعطي مرسل المياه كوبونا واحدا، ويوفر ذلك كثيرا من الجهد والتعب، عن الاستعداد مسبقا وتجهيز النقود في كل مرة. آه، عجيب... إنها خدعة من الصبية الصغار الذين يعملون في محطة المياه، والذين خدعوا في مرة واحدة جميع الأسر واستولوا على نقودها، ثم اختفوا من هذه المدينة. الزوجة تفكر مليا في الأمر، وتفتح درجا صغيرا بجوار ظهر الموقد، وتأخذ دفتر كوبونات المياه الذي تبلغ قيمته مائة يوان، وحجمه أصغر من ورق الكوتشينة... أجل، إذا كان رقم هاتف محطة المياه موجودا، فإن الدفتر يستحق النقود وإلا يصبح رزمة من «الورق المهمل». وفي تلك الأثناء ترى الزوجة على «الورق المهمل» كلمات مطبوعة بجلاء تشمل عنوان محطة إرسال المياه المعدنية «تشنغ لين شان» مطبوعا بوضوح على النحو التالي: هذه المدينة، منطقة ما، شارع كيت وكيت، رقم...، وهناك مقر دائم لمحطة المياه، وكيف لم يلفت انتباه الزوجة منذ زمن بعيد العنوان المكتوب على كوبون المياه؟ وبالتأكيد قد يبدو العنوان غير مهم عندما تتصل هاتفيا بالطرف الآخر وتطلب منه أن يقوم على خدمتك، لكن العنوان بات مهما في تلك اللحظة. وتقدر الزوجة المسافة من الحي الصغير الذي تقطن فيه إلى ذاك

العنوان، وترى أنها ليست بعيدة وليست قريبة في هذه المدينة ذات الحجم المتوسط، حيث تبلغ مساحتها زهاء ستة كيلومترات تقريبا. وقررت الزوجة البحث عن محطة المياه المعدنية وفق العنوان المطبوع على كوبون المياه. ربما من أجل مائة يوان صيني دفعتها (يدور في خلدها أن هذه النقود أصبحت مفقودة)، وربما ترى نفسها زبونة تعرضت للاحتيال والخداع، وفي جعبتها الأسباب التي تجعلها تعتقد ذلك. وهذا الشعور ليس غريبا، بالنسبة إليها إطلاقا، حيث تراودها دائما مشاعر متداخلة بأن الازدهار المباغت في التجارة يفتقر إلى السمعة، والثراء لا يعتبر حياة مستقرة أبدا. وكل الوعود تحوم حولها الشكوك، ويشمل ذلك شركات تقديم الخدمات التي تتحمل مسؤولية إمدادات المياه الساخنة لمدة أربع وعشرين ساعة، لا تفي أبدا بوعدها في البنايات، وتحرص على ذلك، حيث يرتدي رجال الأمن الزي الأزرق الغامض المنوط به الكتفية الذهبية والأشرطة الزيتية، ويلبسون البيريه الأشد حمرة من الخوخ، ويشكلون بين وقت وآخر فريقا يقوم بدوريات الحراسة أمام المبنى كأنما يمثل الأوبرا. أمعقول الشغف بالمظاهر (الطاووسية) على هذا النحو لم يحقق رضا وقناعة الطرفين من شركات الخدمات وأرباب العمل؟ أمعقول لاتزال هناك أشياء غير كافية؟ آه، إنها الزوجة أقسى ما لا تتحمله أن ترى البيريه الصوفي الأحمر فوق رءوس رجال الأمن، لاسيما عندما تستخدم الماء الساخن وينقطع على غرة من الصنبور، وتأخذ منشفة الحمام بصورة عشوائية، وتلتف بها، وتتصل هاتفيا بغرفة الخدمات المناوبة، ويكون ردهم دائما:

«نأسف، سنقوم بإصلاح ماسورة الماء الساخن في التو». والزوجة لديها ثقة ثابتة وقتئذ بأن المناوب الذي استقبل مكالمتها الهاتفية بالتأكيد يميل فوق رأسه البيريه الصوفي الأحمر، ويتصنع الوقار، كما تحوم حوله الشبهات.

ومادامت الأمور على هذه الحال، فإن الزوجة تقدح زناد فكرها وتفكر مليا، ويفيض صدرها بالكآبة، وتتهندم في أحسن ثيابها، وتوصد باب البيت، وتركب المصعد وتنزل إلى أسفل البناية السكنية، وتقود السيارة، وتبحث عن محطة المياه التي من المحتمل أن تكون اندثرت من الوجود. وتعثر على الطريق «كيت وكيت» في المنطقة «الفلانية»، والذي كان في الأصل شارعا صغيرا قذرا ومزدحما ويغص بالضوضاء، وتتركز فيه أعداد غفيرة متراصة من الدكاكين والمحلات التي تبيع بالجملة أحدث المنتجات المحلية، والمقشات، والجواريف، والمماسح، وأوراق التواليت، والمنتجات التي يطلق عليها فولاذ لا يصدأ، وجودتها مشبوهة، مثل الأطباق، والسلطانيات، فضلا عن سكاكين المطبخ، والمقصات، والقدور الحديدية، والدلاء البلاستيكية... وتتدحرج تلك المنتجات مثل الأمواج على الأرصفة على جانبي الشارع الصغير. وتقبع المطاعم الصغيرة وسط هذا الزحام، وتأبى أن تشعر بالوحدة، وتكاد مواقدها تتوسط قلب الشارع. والجوزة المسلوقة، الكبيرة المحشوة، والفطائر المبخرة الصغيرة المحشوة، والشعرية المسلوقة بالزيت - كل في قدره مشحون بالبخار، وتغري الشارع والمارة فيه بكل وسيلة، وحتى المياه القذرة تتدفق بسرعة في كل بقاع أديم الأرض الملطخ بالزيت. الزوجة تهدئ

ســرعة الســيارة، وتركز انتباهها على أرقام لوحة الأبواب، ويجول بخاطرها أنه من الســهل - بصفة خاصة - أن تقول إن أي دكان صغيــر أو «شــركة» اختفت وتصبح غير موجودة فعلا هنا بســبب أن هذا الشــارع الصغير يعج بالاســتهتار والعبث والجلبة. وترى الزوجــة الكلمــات الثــلاث «تشــنغ لين شــان»، حيث توجــد لافتة معلقــة على أســكفة بــاب الــدكان ذي الواجهــة الصغيــرة وكُتِب عليها بالحروف الكبيرة «الشــركة الفرعية للمياه المعدنية تشــنغ لين شــان في شارع كيت وكيت»، ومغمورة في خضم رائحة البخار والزيت المنبعث من الفطائر الصغيرة المحشوة والشعرية المسلوقة بالزيــت، ممــا يدل على أن وجود الشــركة لا يمكن إنــكاره. توقف الزوجــة الســيارة على جانــب الطريق وتدلف إلــى محطة المياه، وتتلافــى الماء القدر الذي يتلــوى على الأرض. وفي غرفة يتراكم الماء داخلها مثل الجردل، ترى ذاك الصبي الصغير، الذي أحضر لهــا المياه المعدنية في المرة الســابقة، مع اثنين من أترابه يلتفون حول طاولة ذات درجين، ويحمل كل واحد منهم سلطانية في يده مصنوعة من الخزف الأزرق وأكبر من رأســه قليلا ويأكل الشعرية المســلوقة بالزيت، وعندما يرى الزوجة تدخل الغرفة، يرفع رأسه مــن داخل الســلطانية وتلتصق على صدغه قطعة من الســبانخ لونها أخضر غامق.

الزوجة ليســت قلقة، فمن الجلي أن محطة المياه المعدنية لم تخدعهــا، والعنوان المكتوب على كوبون الميــاه حقيقي، بالإضافة إلــى أن الهاتــف فوق زاويــة الطاولة ذات الدرجين وتســتخدم في تنــاول الشــعرية تكســوه الأتربــة. تنــزع الزوجة قطعة الســبانخ

الملتصقة بصدغ الصبي، ولا تعرف كيف تناديه. وفيما يبدو أنها لا تحسب أنه بلغ سن الرجولة، ولكن إذا نادته بـ «الطفل الصغير»، يحمل ذلك في طياته صبيانية مفرطة أصلا، فهو - على الأقل - ليس ولدا أجيرا. وماذا إذا نادته بـ «الصبي الصغير»؟ فذلك من الواضح ينطوي على التشجيع والإطراء، وهي لا تقصد ذلك إطلاقا. فهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وملامحه تشبه الفأر إلى حد ما، وضعيف البنية بعض الشيء، وتجمع سحنته الخارجية ووجهه بين ملامح القرية والحضر، وبشرته قاتمة، إنه صبي يعاني من سوء التغذية. وفي الواقع، لا حاجة إلى التفكير مليا في كيفية تسمية مثل تلك الشخصية، وهل توجد ضرورة لذلك؟ وتقول الزوجة للصبي: «آ»، «أنت». وذكرت أنها وجهت إليه بعضا من كلمات الزجر والاستهجان، وشجبت محطة المياه لأنها غيرت أرقام الهواتف ولم تخبر الزبائن. ويوضح الصبي ذلك قائلا: ذاك الرقم الهاتفي استعرته من أحد الأشخاص منذ زمن بعيد، وفي الوقت الحاضر لا يسمح لنا باستخدامه، واضطر صاحب الشركة إلى أن يقدم عريضة يطلب فيها رقما جديدا. ويقول صاحب الشركة يمكن الانتهاء من إجراءات الرقم الجديد في أسرع وقت. ويردف في صوت مبهم وغامض، ويقول للزوجة بعض الجمل التي تنم عن الاعتذار مثل: «أسأنا الخدمة إليكم فعلا»، كأنما مازال تعوزه المهارة في الاستفادة مما تعلمه في المدينة. الزوجة عيل صبرها وتستمع إلى اعتذاره، وتقول له أنت ترسل إلى بيتي المياه المعدنية، أليس كذلك؟ من فضلك أرسل إلي عبوة المياه المعدنية في الساعة الثالثة بعد الظهر. وعنواني

في دفتر تسجيل الزبائن لديكم. ويوافق الصبي في اهتمام شديد ويقول إنه يعرف عنوان الزوجة، وهو: منتزه خو بينغ يا (شاطئ البحيرة)، المبنى الخامس، رقم «٨٠١». تضحك الزوجة من أعماقها، وهي لا تضحك على ذاكرة ذاك الصبي الصائبة، بل تذكرت أن هذه المدينة أصلا تفتقر إلى البحيرات. ويصرون على تسمية المنطقة الصغيرة التي تقطن فيها «منتزه شاطئ البحيرة»، وفي فترة وجيزة اندمجت هذه المنطقة الصغيرة مع نظيرتها لأرباب الأعمال، وأصبحتا تتسمان ببعض مظاهر الصداقة المزيفة والمودة الكاذبة، فضلا عن بعض الخداع والخوف، أليس كذلك؟ وتزهو الزوجة بنفسها لأنها في لمحة بصر أصبحت تتمتع بالتهكم الذاتي، والأشخاص من ذوي القدرة على التهكم الذاتي هم أولئك الذين يتبوأون موقع المبادرة والمبادأة في الحياة.

الصبي يتابع الزوجة بعينيه، وهي تقود السيارة وتنأى بعيدا، ويركز اهتمامه بصفة خاصة على سيارتها البيضاء. ولا يعرف ماركة هذه السيارة، ولكن ربما ذلك ليس مهما، بل المهم أن الزوجة التي تقود السيارة تحضر إلى هذه المحطة التي هي عبارة عن غرفة صغيرة متصدعة وبالية. وتجلب معها النسمة، والرائحة الذكية، والهواء الدافئ وتقف هنا، لقد حضرت إلى محطة المياه، وتتجه إليه مباشرة، وتتجه إليه مباشرة فعلا. تشعر بالغضب إلى حد ما، ولكن كلماتها لم تتجاوز حدود اللياقة، وأشارت إليه أن يحضر إليها المياه المعدنية. وترتدي الأزياء الراقية حقا، ولا يملك الصبي في جعبته الكلمات الكافية التي تصف رقيها ورونقها. الصبي يخفض رأسه ويتأمل ذاته، فهو أصلا في حالة

رثة، ويلبس الحذاء الرياضي من قماش مخملي من إنتاج مصنع الأحذيـة على مسـتوى المحافظـة، وتتخللـه عدة ثقوب. يشـعر الصبـي بعـدم الرضا تجاه ذاتـه، وتنتابه بعض مشـاعر الغضب، ويتذكر مشـهد إرسـال المياه المعدنية للزوجة في المرة الأولى، بيد أنه لا يتذكر أشياء كثيرة بصورة رئيسية. ويتذكر فقط أن الشقة كبيرة جدا، لاسـيما المطبخ، على وجه الخصوص، المطبخ واسـع فعلا وتتجاوز مسـاحته أكبر غرفة فـي منزل عمته، الذي يعيش فيـه، ويزاحـم ابن عمتـه الكبير فـي غرفته الصغيـرة التي تبلغ مسـاحتها ستة أمتار مربعة. ومطبخ الزوجة أكبر من ستة أمتار مربعة مرتين، والصبي لا يفهم لماذا يصرون على أن يكون المطبخ كبيرا على هذا النحو؟ لدرجة أنها تكفي لإدارة مطعم، فضلا عن أن حوض غسـيل المواعين في المطبـخ مفروش أمامه - على غير المتوقع - سجادة (طراحة لمنع الانزلاق)، ولم يكن في حسبانه أن هناك سجادة مفروشـة! وجعلت ذاكرة الصبي تختزن أن الزوجة لديهـا طفـل، ذاك الطفـل الصغير ربما في يكون الخامسـة من عمـره، ويأخـذ الهاتـف النقال ويعتبـره دمية يلهو بهـا، وعندما تطلب الزوجة منه أن يتخلى عن الهاتف النقال، يشـعر بالحزن الشـديد ويقول لها: لماذا أنا - دائما وأبدا - لا أسـتطيع أن ألهو بسرور وبهجة؟ لماذا أنا - دائما وأبدا - لا أستطيع أن أقضي وقتا ممتعـا وجميلا كما أهوى؟! أريد الاتصـال بالرقم «١١٠». ويترك هـذا «الرقم»، وهذه «الغبطة والبهجة» انطباعا في نفس الصبي. وهـذا الانطبـاع أكثر عمقا من نظيـره المنبثق عن شـقة الزوجة التـي تدهـش الأبصـار. وعلـى كل حـال، إن تلك الشـقة وجميع

محتوياتها تنأى كثيرا عن متناول الصبي، بيد أن ما تفوه به الطفل من السرور والبهجة جعل الصبي يشعر بالمتعة، فهو يفكر دائما في البهجة والغبطة في عدم إرسال المياة المعدنية إلى الزبائن، ويتطلع إلى البهجة والسعادة في المكوث بلا عمل. إن وزن عبوة المياه المعدنية يبلغ خمسين جينا (الجين = ٥٠٠ جرام)، ويكسب ثمانية ماوات فقط. وعندما يكون النشاط التجاري في أحسن حالاته، يرسل إلى الزبائن تسع عبوات في اليوم، ويكسب تسعة يوانات وماوين، ويطلب منه ابن عمته الكبير في الحال أن يدعوه إلى تناول الكباب. وأجره في اليوم الواحد لا يكفي حتى لشراء عبوة مياه معدنية، ويدفع يوانين ثمنا لسلطانية الشعرية المسلوقة بالزيت، ويتناول في اليوم الواحد - على الأقل - سلطانيتين في المطعم، لأن بيت عمته غير مسؤول عن تقديم الطعام له. وفي بعض الأحايين، لاسيما عندما يطلب زبائن المياه المعدنية ويقيمون في الدور الخامس أو السادس، ويحمل على منكبيه المياه المعدنية ويصعد بها سلم البناية السكنية درجة تلو الأخرى، فإنه يشعر بالحزن والامتعاض في مناحي قلبه، ويتساءل: لماذا يصر هؤلاء الأشخاص على إنفاق الأموال ويحتسون المياه المعدنية، آه، إنها مياه نظيفة ونقية، ولماذا تحتوي مياه الأنابيب على سموم، لماذا تحتوي على سموم؟ من الأفضل أن تقتلهم السموم. وأفكار الصبي بلا حدود أحيانا. ولكنه يدرك أنه لا يستطيع أن «يقتلهم» بالسموم، وهم يتصلون هاتفيا بالرقم «١١٠»، ويبلغون البوليس. وعندما حضر إلى هذه المدينة بحثا عن أسباب الرزق منذ نصف عام، شرح له ابن عمته الكبير

فائـدة الرقـم «١١٠»، وأدرك مـن هنا أنه يسـتطيع الاتصال بهذا الرقـم في أي وقت إذا تعرض لحالة طارئة في الخارج. والمشـكلة أنه يجابه أحوالا طارئة، إن الحالة الطارئة الكبرى التي يواجهها هي الحاجة إلى النقود، والافتقار إلى النقود لا يمكن أن يجعله يشـعر بالغبطـة، وهل يسـتطيع الرقـم «١١٠» أن يجعله يكسـب نقودا. وعلى أي حال، الآن الصبي يسـتعد لإرسـال المياه المعدنية إلـى الزوجة القاطنة في منتزه خو بينغ يا، المبنى الخامس، رقم «٨٠١». وإذا لـم يشـرب هؤلاء الزبائن الميـاه المعدنية، فـإنه حتى لا يسـتطيع أن يكسب تسعة يوانات وماوين في اليوم أيضا. وفي تلـك الأثنـاء، ينكت عليه بألفاظ سـوقية نفر مـن أترابه الذين كانـوا يأكلـون معه الشـعرية منذ فتـرة قصيرة، ويسـخرون منه قائلـين زبونة جاءت تبحث عنك، زبونة جـاءت لزيارتك، الزبونة تحبـك، الزبونـة مغرمـة بـك. وقلب الصبـي قد يشـهد ضربات خفيفة من جراء ذلك، ولا يستطيع أن يجد تفسيرا لمصدر تلك الضربـات الغريبة في نهاية المطـاف. والآن يدرك فقط أنه فيما يبدو يختلف عن سـائر أترابه، ويشـعر بالندم لأنه يجتمع معهم في محطة المياه، ويتناولون معا الشـعرية المسلوقة بالزيت، ولماذا جعـل الزوجـة ترى في يده تلك سـلطانية الشـعرية التي تطفو فوقها قطع من السبانخ الذابلة؟ ولايزال يشعر أنه من اللازم أن يبدل ملابسه.

وفي السـاعة الثالثة بعد الظهر، تسـمع الزوجة جرس الباب، فتفتح الباب. يحمل الصبي عبوة المياه المعدنية على كتفه ويقف أمام البـاب، وتبدو عليه أمارات الغرابة، والصبي مازال على حاله

كما كان، وتعرفت الزوجة على وجهه وملامحه. الزوجة تفحصه في لمح البصر، وتكتشف أن غرابة الصبي تنبثق من ثيابه المهندم، ففي الصباح لم تعر ملابسه اهتماما، حيث إن ملابسه وملامحه ومحطة المياه المكفهرة المظلمة تتكامل فيما بينها وتنصهر في بوتقة واحدة وتنسجم بصورة طبيعية، ومن يجد هناك ضرورة أن يركز اهتمامه على ملابس الصبي بصفة خاصة، والآن الصبي بدل ملابسه، ويرتدي الزي الغربي الذي يبدو - بالنسبة إليه - فضفاضا بصورة مفرطة، وجودة قماشه متدنية، ولم يخضع للتفصيل الدقيق والمتناسق، وأطرافه وحواشيه حادة، مما جعل رأسه - بالمقارنة - صغيرة بشكل أكبر، لدرجة جعلت الزوجة تشعر بأن الصبي لا يحمل على كتفه عبوة المياه، بل يحملها الزي الغربي. وتأذن الزوجة له بالدخول، ويعم الشقة فجأة صوت وقع قدمين ثقيلتين، وتحدق الزوجة في قدمي الصبي، فتجد أنه يلبس زوج أحذية جلدية كبيرا، وقعره صلب، بالإضافة إلى الجزء الآخر من ملابسه الجديدة. وتلفت انتباهه إلى أن يخلع حذاءه، بيد أنه يتظاهر بأنه لم يسمع كلامها، ويمضي يقرقع بقدميه الثقيلتين في الشقة متقدما صوب الأمام، ثم يندفع إلى المطبخ، ورجلا بنطاله الطويلتان بصورة مفرطة، المطويتان ثنيتين، تتكومان على قماش الفرعة، وإذا نظرت فقط على الجزء السفلي من رجليه يبدو أن الصبي قد أرخى خصر البنطال وخلع بنطاله. ولم تصر الزوجة بعد على أن يخلع حذاءه، فإن خبرتها وتجاربها جعلتها تخمن أن قدمي ذاك الصبي من المحتمل أن تكون نتنة جدا مثل عمال شركة

الخدمات الذين يأتون لإصلاح المدفأة وأنابيب المياه، حيث تقوم كل مرة بفتح النوافذ وتجديد الهواء بعد أن ينصرفوا من البيت. إذن، لا يهم أن يخلع الصبي الحذاء، ومن الممكن ترك قدميه النتنتين محشورتين في حذائه الذي لم يفك رباطه حتى يغادر البيت. ويبدو أن الصبي غشيم في العمل بسبب ملابسه التي لا تتسق ولا تتناسب مع جسمه. ونسمع صوت حفيف الملابس يصدر من جسمه من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. كما تصدر أصوات جلبة فض الغلاف البلاستيكي لعبوة المياه المعدنية. وأخيرا، عندما تأكد بوضوح من تجهيز العبوة ويريد أن يحملها ويركبها في مكانها في مبرد مياه الشرب، تقول الزوجة: انتظر، انتظر برهة.

يحرر الصبي عبوة المياه المعدنية من يده، ويدور جسمه، ويرى الزوجة ترفع في يدها قطعة من القطن الناصع البياض المبللة بالكحول. وتقول للصبي: أريد تطهير وتعقيم فتحة العبوة. ولا تقرب يدك مرة أخرى من هذه الفتحة.

يقول الصبي: إن العبوة تم إقفال فتحتها بإحكام شديد عند خروجها من المصنع.

تقول الزوجة: من أخبرك بذلك؟

يقول الصبي: أخبرنا بذلك صاحب المصنع.

الزوجة تزم شفتيها كرها، ولا تتردد البتة في مسح عبوة المياه المعدنية بقطعة القطن بقوة، كأن تصرفها هذا يخبر الصبي بأنها لا تصدق صاحب المصنع، ولا حتى المصنع، فيما يطلق عليه «الإغلاق المحكم». وقبل صباح اليوم، كانت لا تعتزم تطهير

المياه المعدنية، بيد أنه بعد صباح ذاك اليوم، تولدت لديها هذه الفكرة. أنها لا تلقي باللائمة - على وجه الخصوص - على إنشاء محطة المياه في ذاك الشارع الذي يعج بالفوضى والمياه الوسخة المتدفقة في كل جوانبه. وأنت هل تعتقد أن الأشياء التي تشتريها من السوبر ماركت الفخم الذي يتمتع بالنور المشرق والبيئة الهادئة، هل تعتقد أن الأشياء مصدرها يرجع إلى المكان المشرق والمستنير والبيئة النظيفة. والزوجة منتجة لإحدى برامج التلفاز، ومعرفتها بمثل تلك الأمور ليست قليلة. تحني خصرها وتمسح عبوة المياه المعدنية، وتقع نظراتها بصورة تلقائية جدا على اليدين المسبلتين للصبي الواقف بجوارها. آه، إنهما يدان قذرتان جدا، إنهما اليدان اللتان ترسلان المياه المعدنية للزبائن في كل الأمكنة، والتي يشربونها. الزوجة تنصب قامتها، وتتذكر أن دفتر كوبونات المياه المعدنية في يدها، والذي قيمته مائة يوان بالتأكيد لا يمكن إرجاعه، وأنها سوف تغير الشركة بكل تأكيد بعد نفاد ذاك الدفتر. إذن، يدا الصبي قذرتان أم لا، لا تمت إليها بصلة كبيرة بصورة أساسية، وذلك على غرار الملابس الغربية الفضفاضة التي يرتديها الصبي ولا تناسبه، والحذاء الجلدي الكبير في قدميه لا يمت ذلك إليها بعلاقة أيضا. ولماذا الصبي يتصرف على هذا النحو، ويرتدي مثل تلك الملابس والحذاء؟ إنها لا تهتم بذلك إطلاقا، وليس لديها متسع من الوقت للاهتمام بذلك. ففي المرة القادمة، ربما الشخص الذي يرسل المياه يرتدي ملابس غربية فضفاضة بشكل أكبر، ويداه أكثر قذارة.

انتهت الزوجة من عملية تطهير فتحة العبوة، وأوعزت إلى الصبي أن يركب العبوة في مبرد مياه الشرب، وانتزعت كوبون المياه وأعطته إياه. ولكن الصبي مازال واقفا لم يبرح مكانه. الصبي يتثاقل في سيره ولا يمشي لأنه كسير الفؤاد بعض الشيء. وهذه «الملابس» التي يرتديها هي البزة الرسمية لابن عمته الكبير، رجع خصيصا ظهر اليوم إلى بيت عمته وسرقها، اعتقادا منه أن هذه البزة تستطيع أن تجعله مؤهلا ومناسبا لإرسال المياه المعدنية بعد ظهر اليوم، والزوجة التي تدخل وتخرج يجب – من أجلها – أن يرتدي مثل هذه البزة، كما هو في هذه الحال الآن. ومن أجل ماذا أيضا؟ إنه يستغل مثل هذه البزة ليمحو الآثار الناجمة عن زيارة الزوجة لمحطة المياه في ذاك الصباح، وإغفال نظرها بعد أن شاهدته يمسك في يده سلطانية الشعرية المسلوقة بالزيت ويلتهمها التهاما، أليس كذلك؟ الصبي خائر القوى ولا يستطيع أن يعود إلى تفكيره الذي أصابه التشوش، لقد أصبح مفعما بالحزن والغم. لم تهتم الزوجة بملابسه الجديدة بجلاء، بل استجمعت قواها لتنظف فتحة العبوة المعدنية المغلقة بإحكام، فقد كرهت نوايا الصبي، كما أن ذاك الصبي حساس للغاية ولا يستطيع أن يبوح بما يعتمل داخله، وملكة التمييز لديه يجانبها الصواب دائما، ويعتقد بإصرار أن «تغيير ملابسه» ليس كافيا، ويتذكر ملابس ابن عمته الكبير الحديثة على الموضة. في تلك الأثناء يسمع الزوجة تقول له: هل لديك أمر آخر؟ يرد الصبي شارحا موقفه أنه يرغب فقط في أن يبلغ الزوجة أنها إذا احتاجت إلى مياه

معدنية يمكن أن تستدعيه عبر إشارة النداء الآلي، فهو يمتلك جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية (BP)، تقول الزوجة في استغراب: ماذا تقول؟

يشعر الصبي بفرحة غامرة من جراء تعابير الغرابة التي بدت على الزوجة، فهو يأمل أن تظهر اهتماما به. ويبلغها للمرة الثانية أنه يمتلك جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية ويمكن استدعاؤه.

تقول الزوجة: معنى كلامك أننا لن نستطيع الاتصال بهاتف محطة المياه لفترة طويلة قادمة، أليس كذلك؟

يقول الصبي: كلا.

تقول الزوجة: إذن، لماذا أستدعيك عبر جهاز تبليغ المكالمات الهاتفية؟

يقول الصبي: مقصدي أنه يمكن استدعائي إذا احتجت مياه معدنية في هذه الأيام.

تقول الزوجة: لا توجد ضرورة لذلك. يمكن أن ترسل لي عبوة معدنية مرة أخرى بعد خمسة أيام، حسنا أم لا؟

يقول الصبي: إذن، تشعرين بعدم ضرورة تسجيل رقم جهازي الخاص بتبليغ المكالمات الهاتفية؟

تجيب الزوجة بصورة صارمة وقاطعة قائلة: لا داعي.

تمقت الزوجة ذاك الصبي مرسل المياه المعدنية إلى حد ما، أيعتقد من هو؟ كما يطلب منها أن تستدعيه هاتفيا، هل معقول أن أي شخص مؤهل ومناسب أن يتصل بها هاتفيا؟ وحتى لو نفدت المياه المعدنية لديها حقا، ولا تستطيع الاتصال بجميع

محطـات المياه، والمـاء الذي يتدفق من الصنبـور في البيت ليس ماء؟ وإذا عادت عقارب الزمن إلى الوراء، عادت إلى عشـر سنوات أو عشـرين سـنة خلت، مـاذا كانـت الزوجة وجميـع قاطني هذه المدينـة يشـربون؟ كانوا يشـربون الماء العادي المتدفـق من أنبوب المـاء. وعندمـا كانـت الزوجة صغيرة فـي عهد الطفولـة، أقامت فـي مبنـى مهاجع الطالبات الذي شـيد علـى غرار أنبـوب الماء، ويسـتخدم الجميـع بصورة مشـتركة أنبوب الماء فـي نهاية الممر. وفـي أمسـيات أيـام الصيـف، كانت لا تغسـل أقدامها فـي البيت أبدا، بل كانت تلبس دائما الصندل وتدلف إلى أسـفل أنبوب الماء المشـترك وتشـطف أقدامها، وبعد أن تنتهي من الشطف، تتوجه مـرة أخرى إلـى أنبوب الماء وتحتسـي بصورة مباشـرة جرعة من المـاء العـادي. والكبـار يمنعون احتسـاء المـاء العـادي، ويطلبون منهـا أن تشـرب المـاء المغلي بعـد أن يبرد، ولكن هـي وصديقاتها يشطفن أقدامهن هكذا، ويشربن الماء الطبيعي العادي. ونموهن يسـير بصورة طبيعية، والسـموم لم تقتلهن، وشببن عن الطوق، وهـن في صحة جيـدة وقوية. وتسـتعيد الزوجة أحـداث الماضي وقلبهـا يغـص بالنوايا الدافئـة، ولكن بات ذلك مجـرد ذكريات. وفي الوقت الحاضر، قد أصبحت أما، ولا ترغب إطلاقا أن تترك طفلهـا وفلـذة كبدهـا يكبر وهو يشـرب الماء العـادي المتدفق من أنبـوب المـاء، ويفتقر إلى المعيار الدولي. وحتـى زوجها المقيم في الخـارج ويضطلـع بالبزنـس عندما يعود أدراجه في رأس السـنة الجديـدة، لم يتكيف بعد مع البيئة ويصيبه الإسـهال، حتى ولو شـرب المـاء العادي المغلـي. ومن ثم تحتاج الزوجة إلى أشـخاص

يرسلون إليها المياه المعدنية، وأخيرا، تستطيع أن تتحمل وطأة مثل هؤلاء الأشخاص.

وبعد انقضاء خمسة أيام، حضر الصبي إلى بيت الزوجة مرة أخرى. ومازال يرتدي الملابس الغربية والحذاء الجلدي، ويلف حول عنقه شالا مخرما، مما جعله يبدو أكثر ضخامة. تفتح الزوجة له الباب، وتمضي الأحداث كما كانت في المرة السابقة. والشيء الجديد في هذه المرة، أنها وجهت إليه كثيرا من الأسئلة في أثناء دفعها ثمن كوبون المياه. ومن المحتمل أن يرجع ذلك فقط إلى رغبتها في أن تعلمه كيفية الحفاظ على الثقة والسمعة الطيبة، وربما ليس في جعبتها كلمات، وتبحث عن مادة للحديث. وسألته كم يكسب من توصيل العبوة الواحدة من المياه المعدنية؟ ويجيب: ثمانية ماوات، ثم تسأله عن عدد العبوات التي يستطيع توصيلها في اليوم الواحد، ويتوقف لحظة عن الكلام، ويفكر جيدا أن يتكلم كلاما فارغا مع الزوجة. ثم يرفع رأسه ويقول إنه في اليوم الواحد يقوم بتوصيل ستين عبوة على الأكثر. ولا يأمل أنها لا تحتقره، ويخبرها أيضا أنه يكسب نقودا غير قليلة في اليوم الواحد. وللأسف إن الزوجة لا توليه اهتماما، ولا تريد أن تعرف ماذا يعني ستين عبوة بالنسبة إلى الصبي، هل يدل على أنه يقضي وقتا طويلا ويبذل مجهودا جسمانيا ضخما؟ كما لا تريد أن تحسب ستين عبوة ضرب ثمانية ماوات يساوي كم من النقود؟ لقد تحدثت معه بعض الكلمات لأنها ترغب في ملء هذا الفراغ الموجود فقط وقبل مغادرته البيت. ومن ثم سيان عندها إذا كانت كلماته هزلية أم

جدية. ولذا كانت إجابتها بلا تدقيق، وقالت: آه، ستون عبوة مياه معدنية.

إن إجابة الزوجة، بلا تدقيق، وتعابير وجهها العادية في أثناء الحديث سببتا جرحا لمشاعر الصبي. وفي الأصل، لم تفلح أكاذيبه المتضخمة والأرقام المفرطة في تلك الأكاذيب أن تحرك مشاعرها، بل أثارت سخريتها؛ لأن ذلك كله من المستحيل، الصبي ليس عنده عمل يقوم به هنا، بل هو أصلا ليس لديه ما يقوم به هنا، ولكن لماذا لايزال في بيتها ولم يغادره؟ ويشعر الصبي بالعطش، ويقول لها إنه يريد أن يشرب قليلا من الماء.

الزوجة تلوح برفق شديد بذقنها صوب حوض غسيل المواعين. وطبعا، يستطيع الصبي فقط أن يدخل إلى حيث يوجد هذا الحوض المجهز بفتحتين يجمعهما جاروش الفضلات، ويمتد فوقه صنبور الماء الفولاذي الذي لا يصدأ، وتصميمه مبتكر، ورقبته طويلة، وشكله لماع. الصبي يتقدم إلى المكان المحدد له، ويشعر بالذهول إلى حد ما، ويميل برأسه الصغيرة التي تغص بالأتربة والهبرية، ويمد فمه تجاه الصنبور البارد.

تنقضي خمسة أيام أخرى. ويعيش الصبي أياما كئيبة. وقد اكتشف ابن عمته أن ملابسه الغريبة وحذاءه الجلدي يلبسهما الصبي خلسة بصورة دائمة، كما جعلها قذرة. ينشب العراك بين الصبي وبين ابن عمته من جراء ذلك، ما دفع الأخير إلى وضع الأشياء التي يرى أنها غالية في صندوق مقفل. وخلال الشجار نجد أن الصبي ليس خصما لابن عمته مفتول الساعدين الذي يستطيع أن يمسك بخناقه ويجذبه إلى أعلى ويعلق قدميه في

الهواء. وعلى كل حال، الشجار ليس مخيفا إطلاقا في حد ذاته، وأقصى ما يخشاه الصبي عادة هو حديث عمته إليه على هذا النحو، فهي دائما تفرك جفونها وتقول له أنت تقيم مجانا في دارنا، ومرة أخرى هكذا... يدرك الصبي مغزى كلامها اللاحق، ومن المحتمل أن يطرد من بيت عمته في أي وقت، ويفكر أن يندس داخل أروقة هذه المدينة، ولم يعد أمامه سوى تأجير شقة على حسابه الخاص. ولكن كان تفكيره يومذاك مشوشا ومضطربا، وحالته النفسية شديدة التأثر من الارتباك والحيرة، لدرجة أنه يطلب الصفح من ابن عمته الذي غادر بوابة المسكن في الحال، ثم ما لبث أن اعترته رغبة محمومة في أن يفتح صندوق ابن عمته عنوة. ورغبته هذه أكثر قوة من طلبه الإفصاح حتى يحصل على مبتغاه فجأة من دون أن يحسب للعواقب حسابا. ويفتح صندوق ابن عمته قسرا، ويتهندم في أجمل صورة، ويلبس كل ما يستطيع من الملابس، ولا يتلفح بشال ابن عمته ذي المربعات فقط، بل يفرد أسفل رقبته رابطة العنق المرقشة، ويشبك في خصره رزمة مفاتيح متعددة الألوان والأشكال تشمل مطواة، ومقص طواء، وهاتفا نقالا غير حقيقي. وأخيرا، يركب رأسه ويصر على أن يأخذ المسجل وكمان (Walkman) الخاص بابن عمته، ويدسه في جيبه، وتغطي السماعة الكبيرة السوداء رأسه ثم يضعها في أذنه، ويفعل ذلك كله من وراء ظهر عمته، ويتسلل في الظلام مثل الخفاش، ويهرول مباشرة إلى محطة المياه، مثل جرذ صغير ثقيل الحركة ورشيق السرعة أيضا.

الصبي يقود دراجته ويحمل عليها عبوة المياه المعدنية

الجديدة ويقصد بيت الزوجة، كان الطريق وعرا، ودراجته تمشي في تباطؤ وتثاقل، نتيجة تلف في إطارها الخلفي. لم يعرف من أتلف هذا الإطار... اضطر أن يدفع الدراجة ويبحث عن دكان يصلح فيه ذاك الإطار. وعندما يقود دراجته مرة أخرى على الطريق، كانت أذناه تغص بأغنية «القلب ضعيف جدا». وكان صوت الأغنية عاليا، وكاد يطير به من فوق مقعد الدراجة. وسارت الأمور على ما يرام لأنه في لمح البصر انفصل عن كل الموجودات من حوله، ونأى بنفسه بعيدا عن كل شيء، من السيارات، والمشاة، والشوارع والأشجار، ولم يكن يشعر إلا بصوت الأغنية في أذنيه يقوده إلى الأمام، ربما كانت تلك الأغنية تقود الدراجة بدلا منه. ومن ثم، كانت حاستا السمع والبصر لديه ومشاعره مخدرة بعض الشيء. ولا يدري أن دراجة ثلاثية تعلقت به وأسقطته على الأرض. في تلك الأثناء، ينقطع صوت الأغنية، ويشعر بالموجودات من حوله، ويسقط هو ودراجته على أديم الأرض، وتتدحرج عبوة المياه المعدنية بعيدا. ينهض من سقطته، وتتسخ ملابسه الغربية وحذاؤه الجلدي بالغبار والأتربة، ويحاول تشغيل جهاز التسجيل «وكمان»، ولكن الجهاز قد أصابه التلف. والدراجة الثلاثية التي طرحته أرضا لاذت بالفرار. ومن حسن حظه أن عبوة المياه المعدنية ليس بها ضير. يعلق الصبي هذه العبوة في شنطة الدراجة الخلفية ويمسكها بعلّاقة، ويمضي قدما إلى الأمام قاصدا منتزه خو بينغ يا.

وكان الجو بعد الظهر، في ذاك اليوم هادئا... ويوقف الصبي دراجته أمام بوابة البناية السكنية رقم «٥»، وينفض الغبار العالق

بجسمه من أعلى إلى أسفل، ويحمل عبوة المياه المعدنية على ظهره ويدلف إلى ردهة هذه البناية، ويتقدم إلى المصعد مباشرة، ومن حظه العاثر أن المصعد أصيب بعطب في هذا اليوم ومعطل مؤقتا. وكان ذلك - بالنسبة إلى الصبي - فال شؤم حقا. إذ يجب عليه أن يصعد السلم إلى الطابق الثامن حاملا على كتفه عبوة المياه المعدنية، التي يبلغ وزنها خمسين جينا. وربما يجب عليه أن يتراجع عن تقديم هذه الخدمة، ويبحث عن شخص آخر يستطيع أن يغير الميعاد ويأتي في يوم آخر، وعلى كل حال، يشعر الصبي بأن ليس أمامه مجال للتراجع، حيث إن إصراره وتعنته الشديدين، ومجابهة المخاطر ومشقة الحصول على الملابس التي يرتديها، وسماعة الأذن التي تبدو حديثه، على الرغم من الأضرار التي أصابتها، وتواثبه وترنحه وتباطؤ عمله كل ذلك شجعه على عدم التراجع وحتم عليه أن يصعد إلى الطابق الثامن ليرى الزوجة. إذن، لقد بدأ الصعود. وفي ذلك الحين، كان حذاؤه الكبير بصورة مفرطة غير ذي جدوى بصفة خاصة، حيث إنه ثقيل وغير مناسب أيضا، وأصبح عبئا ثقيلا على الصبي في أثناء صعود البناية. وعندما صعد إلى الطابق الخامس، شعر بأن سماعة الأذن تصدر طنينا مدويا، ورأسه تعرق بسبب المرض، وظهره مبلل كلية، والسعرات الحرارية داخل جسمه لا تكفي أن تعوضه عن مظهره غير العادي. يستريح الصبي ثلاث مرات حتى يصل إلى الطابق الثامن في نهاية المطاف.

تسمع الزوجة رنين جرس الباب، وتعرف أنه الصبي بالتأكيد من خلال عدسة الباب، ثم تفتح الباب.

الصبـي فـي عيون الزوجة يبدو أكثر غرابة عن أي مرة أخرى. الصبـي يضطلـع بإحضار عبـوة الميـاه المعدنية فقـط، وهو الآن فـي الدوام، فعـلام يدل مظهره الخارجي؟ حيـث يرتدي الملابس الغربية، والشـال، ورابطة العنق الزاهية، ويعلق سـماعة كبير في أذنـه. إنـه يبـدو كأنما ينتقـل إلى مسـكن آخر، أو اسـتولى حالا علـى متجر ألـف صنف وصنف. ولكـن عبوة الميـاه المعدنية فوق كتفـه ألغت كل هذه المظاهر والأبهة لدى الصبي. وعلى أي حال، الزوجة تريد المياه المعدنية فقط، ومن ثم جعلته يدخل البيت.

يدخـل الصبـي البيـت وهو يلهـث قليلا، ويمشـي حتى يصل إلى مبرد مياه الشـرب، ويركب عبوة المياه المعدنية، ويقوس ظهره دائمـا، كمـا يغطي بطنه بيده. وبـات من الصعب جدا - في تلك اللحظة - أن تحدد ماذا أصابه؟ ربما ألم في بطنه، وربما ألم في المعدة، وربما لا يشـعر بألم في أي موضع من الجسـم، إنه يعاني فقط من الإرهـاق الشـديد. ومن المحتـمل ألا يشعر بالتـعب، ولا ينصب قامته دائما. ويأمل أن يستغل هذه الوضعية ويثير شفقة الزوجة. وهي المرأة التي تحرص على الفضول والتدخل في شؤون المرأة الأخرى. إن إثارة شفقة ورحمة الزوجة كانت مجرد أمنيات، كمـا تشـير إلى بعـض التدلـل. وأيا كانت هـذه الإثـارة الضئيلة، فإن الصبي نفسـه قد لا يوضحها أيضـا. وإذا أدركت الزوجة هذه الأمنيـات الباطلة وهذا التدلل، فإنها تحتقر الصبي وتستشـاط غضبا، ويتضافر الغضب مع الازدراء وتطرده في الحال.

تجيـل الزوجة بصرهـا عرضا في تعابير وجـه الصبي عندما شـاهدته في تلك الوضعية، وملامحه تدل على أنه ليس عابسـا

الزوجة تطلب بصرامة من فلذة كبدها أن يعود إلى حجرته، وتقول له: ارجع إلى حجرتك.

ينصرف الطفل المحبوب ويمسك في يده كوبه الفارغ، ولم يبك، ولم يحدث جلبة أيضا، وشعر بالتأكيد بأن الجو هنا غير معتاد. يرجع إلى حجرته، وتغطي يده الصغيرة برفق باب حجرته.

الزوجة أكثر صرامة تخاطب الصبي قائلة: من فضلك، اخرج من هنا.

الصبي أصابه اليأس تماما، ويعرف أن ما يريده ليس مياه معدنية، إذن، ماذا يريد؟ وماذا يريد بالضبط؟ هو شارد الفكر حقا، وتفكيره غير واضح أصلا. والآن، وفي هذه اللحظة بالذات، يريد أن يتوقف ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على مشاعر الغضب العارمة لديه بصورة واضحة أو مبهمة، كما بدأ يكره طقم الملابس الغريبة التي أعجب بها، ويبغض الأشياء الصغيرة التواقة على جسمه، ويبدأ يمزقها، ويمسك في يده رزمة المفاتيح المعلقة حول خصره، وتشتمل على مطواة، ومقص طواء، وهاتف نقال غير حقيقي. ويضم قبضته على المطواة ويفتحها. المطواة ليست طويلة، ولكن طرفها حاد جدا. يقامر الصبي بكل ما يملك، وفي حركة بليدة يشهر المطواة الصغيرة صوب الزوجة، ويتقدم نحوها خطوة، ولا يتمالك السيطرة على نفسه. ويشعر بأنه يكرهها، وعندما بدأ يكرهها أدرك بجلاء أنه مغرم بها. ولكن، في ذلك الحين، بات الغرام والكراهية شيئا واحدا، وهما سيان بالنسبة إلى الصبي. ولم

يستطع أن يتقبل ويتحول في المساحة القائمة من الغرام إلى الكراهية. ومن أجلها تهندم في ملابسه الغريبة وحذائه الجلدي. ولكن هذه الزوجة الآن جديرة بكراهيته مثل ملابسه وحذائه. ولكن ماذا يريد أن يفعل؟ هل يريد قتلها أم يشرب مياهها المعدنية؟ ربما يريد الشيئين معا. وفي تلك اللحظة لم يتمالك نفسه لدرجة لا يستطيع التمييز بين قتل الإنسان، وإجباره على إعطائه جرعة ماء لكي يشرب، وكلاهما جريرة خطيرة. إنه لم يدبر مؤامرة سلفا، وليس لديه أسلوب تآمري منهجي، ويتفوه بكلماته كيفما تقوده قدماه.

الزوجة ترقب الصبي القريب منها وتدرك الخطر حقا. وارتأت أنها قابلت لصا اقتحم بيتها. ولكن – مع ذلك – الظروف في مصلتحها. وتحاول السيطرة على نفسها بعض الشيء، وتهدئ من روعها بقدر ما يمكن، وتتقهقر خطوة إلى الخلف، وتستند إلى ظهر الموقد، وتخفي يدها اليمنى خلف ظهرها بصورة كافية حتى تمسك بالمسدس فوق ظهر الموقد، تقبض على المسدس بكلتا يديها، ثم تصوبه نحو الصبي على حين غرة. إنه مشعل النار في هيئة مسدس، اشتراه زوجها الذي يعمل في الخارج بأربعة دولارات أمريكية من السوق الحرة في مطار الشارقة عندما كان في الترانزيت. والآن تضطرب نبضات قلب الزوجة، وتبذل قصارى جهدها حتى لا ترتعش يدها التي تمسك بالمسدس، ويتحتم عليها أن تجعل الصبي يصدق أن ذلك المشعل مسدس، وأنه مسدس حقيقي وأن الذخيرة الحية في يدها. وعلى هذا النحو، أصبحت الزوجة التي تمسك المسدس

في يدها، والصبي الذي يمسك المطواة وجها لوجه، ويتمسك كل منهما بموقفه، ربما لمدة ثلاث أو خمس دقائق.

الأجواء مهيأة للانفجار. وتشعر الزوجة بأنها يجب عليها أن تتكلم. المسدس في يدها، ولكن على العكس كتمت صوتها بشكل أكبر. تكتم صوت حنجرتها وتصوب المسدس نحو الصبي، وتقول له: اخرج، إذا لم تنصرف سأطلق النار عليك.

المسدس يبث الخوف في نفس الصبي حقا، ولم يخطر بباله أبدا أن المسدس ربما يكون غير حقيقي، وذلك لأن الزوجة من ذوي المستويات الراقية: شقتها وسيارتها وحياتها، كل شيء لديها ينتمي إلى المستوى الراقي لدرجة تجعلك تكره نفسك بلا ريب. ويتزامن مع تلك اللحظة التي يشعر فيها الصبي بالهزيمة، إحساسه بالذهول الذي لا يكبح جماحه من جراء ذاك المسدس في يد الزوجة، إنه مسدس، آه، مسدس شكله هكذا! آه! ويحملق في فوهة المسدس السوداء التي تشبه العين المفتوحة والفم شبه المفتوح، ويبدو أن ذلك المسدس هو المصدر الحقيقي لشعور الصبي بمركب النقص، وجعله لا يعرف أين يخبئ نفسه من شدة الخجل. وفي لحظة، يبدو أنه يرغب في إخفاء المطواة الصغيرة التي في يده، والتي جودتها رديئة وحقيرة الشكل خلف ظهره، ويبدو شكل المطواة حقيرا بشكل أكبر بسبب كونها رديئة، كما تبدو تافهة وزهيدة بصفة خاصة بسبب تلك سوء الجودة. وماذا يفعل الصبي؟ ويده التي تقبض على المطواة المبللة بالعرق. وعلى كل حال، لا يدري ماذا يجب عليه القيام به؟

تردد الصبي يزيد من قوة الزوجة، وتشد زناد المسدس

بأصبعها في جسارة ويحدث المسدس صوت «طق» مرتين. وتهدف من ذلك إلى تخويف الصبي بشكل أكبر، وطرده بسرعة. وعلى الرغم من أن الصوت «طق» قد يجعل الصبي يكتشف أن المسدس غير حقيقي، بيد أن الزوجة تتوجس خيفة ولم تستطع أن تكبت خوفها، وتشد الزناد مرة أخرى، وينبعث الصوت «طق» مرتين أيضا.

صوت المسدس يصيب الصبي بالذهول مرة ثانية، وجعله كأنما سمع صوتا ضخما لا يضاهى من السخرية، ولا يعرف أين يخبئ نفسه من شدة الخجل، ويفكر في أن يرخي المطواة، ويشعر بأنه يريد الانقضاض على الزوجة، الانقضاض على المسدس الذي استحوذ على إعجابه وأصابه بالدوخة، الانقضاض على كل شيء بعيد عن مناله ورفيع المستوى بالنسبه إليه. ويرخي فعلا المطواة التي جعلته لا يعرف أين يخبئ نفسه من شدة الخجل، وفي بعض الأحيان يتحلى - بصفة خاصة - هؤلاء الذين لا يعرفون أين يخبئون أنفسهم من شدة الخجل بقوة انفجار من الحزن والكآبة، والتهور والطيش. وفي تلك الأثناء، سيارة الشرطة «١١٠» تقف أسفل البناية السكنية، ويقتحم البوليس الباب ويدخل. إن طفل الزوجة فلذة كبدها توارى عن الأنظار في غرفته، وأبلغ الشرطة من خلال الهاتف النقال الخاص بأمه. وأخيرا، تمتع الطفل المحبوب بفرصة سانحة حقا للاتصال بالرقم «١١٠».

الزوجة تستمع إلى استجواب البوليس «١١٠» للصبي واتهامه بأنه صبي صغير السن، ويمسك مطواة ويقتحم البيت بقصد

السرقة والنهب، ويجعله يدرك أنه ارتكب مخالفة قانونية. يقول الصبي إنه لا يفكر في السطو والسرقة. ويقول البوليس: إذن، ماذا تريد أن تفعل؟ يطأطئ الصبي رأسه في كل مرة يوجه إليه البوليس هذا السؤال. والبوليس يسألك أيضا: أتعرف ما هو الخجل؟ الصبي لا ينبس ببنت شفة. ويردف البوليس: آه، وما الشيء الذي يستطيع أن يجعلك خجولا؟ الصبي يفكر مليا ويقول: المسدس. ويسأله البوليس: هل تخاف من المسدس؟ يجيب الصبي: كلا. الزوجة أشهرت المسدس في وجهي. وأنا عندي المطواة فقط. ويقول البوليس: أتشعر بالخجل لأنك لا تمتلك مسدسا؟ يلتزم الصبي الصمت مرة أخرى. تدور رأسه في بحر من الأفكار التي ربما رصعها فعلا بالمقدرة الساحرة البراقة ورفيعة المستوى أيضا، وجعلته يبتهج بالمسدس، ويتطلع كثيرا إلى أنه يجب أن يكون ذاك الشخص الذي يمسك المسدس. وقد نسي الزوجة تقريبا في ذلك الحين.

وفي بعض الأحيان ينتاب الزوجة غرور صارم، وتتذكر ذاك الصبي الذي ترك انطباعا في نفسها على الرغم من شراسته وضعفه. وعلى كل حال، إنه ليس خصما للزوجة في نهاية المطاف، بل وحتى لا يضاهي طفلها صاحب السنوات الخمس. وليس إطلاقا أن جميع الأطفال في سن الخامسة لديهم المقدرة على الكلام بوضوح والاتصال بالنجدة في حالة الطوارئ. وطفل الزوجة المحبوب يستطيع ذلك. وتضم الزوجة طفلها إلى صدرها بقوة كلما تتذكر تلك الأحداث. وفي الأيام التالية لوقوع الحادث، وعندما تعطل المصعد بالمصادفة، واضطرت إلى

أن تصعد السلم وهي تستشيط غضبا، تذكرت أيضا أن البوليس «١١٠» قد أخبرها أنه كان في مستطاعه أن يصل إليها أسرع من ذلك إذا لم يكن المصعد معطلا وقتئذ. إذن، الزوجة تخمن أن الصبي يومذاك حمل عبوة المياه المعدنية على كتفه وصعد إلى الطابق الثامن. ويبرق أمام عينيها الصبي وهو يقوس ظهره ويغطي بطنه بيده.

تتذكر الزوجة وقائع الحادث بصورة مستمرة، وتسأل نفسها بكل صرامة: كيف تعالج هذا الأمر؟ هل أشعر بالخجل جراء تعب وإرهاق الصبي؟ كلا.

يتردد داخل أعماقها بصوت عال: «كلا!».

الصمغ العربي
(١)

عندما كان الليل يرخي سدوله وينشر ظلامه، وضع جياقوي قنغ يده على كتف الفتاة شياو مي.

وجلسا كتفا لكتف فوق جبل الأحجار السوداء في الجهة اليمنى من مركز المحافظة. وكما ذكر جياقوي قنغ أن ذاك المكان يعتبر أجمل منظر في مركز المحافظة، كما أنه هادئ جدا، وقلما يدلف إليه الأشخاص الذين بلا وظائف محددة.

جلس جياقوي وشياو مي هناك طوال فترة ما بعد الظهر، يناقشان الفن، والفلسفة، والتخطيط لمستقبل كل منهما. وكانت مناقشتهما حامية جدا، ومؤثرة جدا، وتبادلا إعجاب كل منهما بمهارة وكفاءة الآخر، كما كانا يكفان عن الحديث بين الحين والآخر، وتصدر عنهما صيحة من السخرية والتهكم إزاء العزلة والجهل في مركز المحافظة. وعلى الرغم من أنهما ولدا محليا وترعرعا محليا، بيد أن طموحهما وتطلعاتهما - على كل حال - تفوق كثيرا جدا طموح قاطني هذه المحافظة. وكانت شياو مي تتجاوز العشرين عاما بقليل يومذاك، وكانت مذيعة مؤقتة في دار إذاعة المحافظة، وملامحها وسيمة وأنيقة،

وقوامها ممشوق أيضا. وفي عهد الطفولة، تعلمت الرسم الصيني التقليدي لبضعة أيام، عندما كانت تصطحب والدها الذي يعمل في المركز الثقافي التابع للمحافظة، وتتجذر بصورة عميقة داخلها الخبرات الفنية المكتسبة الواعية، ولا يدخل في حسابها ولا في نطاق رؤيتها كل الشخصيات الثقافية المشهورة في المحافظة. وكان جياقوي قنغ يناهز الثلاثين عاما إذ ذاك، وهو مصمم فني في مصلحة السياحة التابعة للمحافظة، والمسؤول عن الخط، ورسم شارات الطريق لدخول الجبل، والخرائط المبسطة للمناظر... وهلم جرا، حيث توجد غابة ثانوية عذراء في المحافظة. وعقدت المحافظة - ذات مرة - دورة تدريبية فنية، وشارك فيها كل من جياقوي قنغ، وشياو مي، وتعرف كل منهما على الآخر في أثناء تلك الدورة.

وشب جياقوي قنغ عن الطوق بصورة لا تفوق غيره بالنسبة إلى الرجال، وتتراوح قامته بين مائة وخمسين ومائة وسبعين سنتيمترا تقريبا، ووجهه أصفر، وعيناه متورمتان ومنتفختان، وشعره أشعث خشن قاتم، وتبدو بقع صفراء وسوداء في أسنانه من جراء التدخين وعاداته الصحية غير الجيدة.

وثيابه غير مهندمة، ويرتدي جاكيت فضفاضا، تطال حاشيته ركبته، ويظهر أنه يستغل ذلك، ويتعمد أن يكون جسمه غير واضح المعالم، ويجعل قامته أقصر أيضا. ويواجه صعوبة في سن زواجه، حيث يبدو أنه يفتقر إلى الأشياء التي تستحق الاهتمام من منظور معايير هذه المحافظة. وطاف يزور بعض زميلاته، وكان يطارد عادة من قبل الكلاب في الأفنية قبل أن

يغشاها. وعلى الرغم من أن طباع الكلاب في كل منزل مختلفة جدا، حيث بعضها شرس بعض الشيء، والبعض لطيف إلى حد ما، ولكن تصرفاتها إزاء جياقوي قنغ كانت متشابهة ومتماثلة تماما. وتندفع نحوه وتزمجر، وتكشر عن أنيابها، وتحاول الانقضاض عليه وتمزيق جسده. وفي تلك الأثناء، يثني جياقوي قنغ رجليه ويجلس القرفصاء على الأرض ولا يتظاهر إطلاقا بأنه يلتقط حجرا ويجعل الكلاب تشعر بالتهديد، حيث إن خبرته في التعامل معها ضئيلة وتنأى كثيرا عن الإنسان العادي، بل مقصده أنه يطلب الرحمة من الكلاب وهو جالس القرفصاء. وتبدو أمارات وجهه كئيبة ومهمومة من جراء الرعب المباغت، فضلا عن الكآبة والحزن الناجمين عن الشعور بالنقص، ولا يضاهي ذلك جاكيته الفضفاض وحاشيته التي تكنس الأرض، ويبدو أن جاكيته يطمره تماما، أو نقول يظهر أيضا أنه يضطجع داخل ملابسه. وعندما ترى شياو مي حالة جياقوي قنغ على هذا النحو يتوسل إلى الكلب في منزلها طلبا للعفو، تندفع من غرفتها، وتزجر الكلب وتسحب جياقوي قنغ من يده حتى ينهض تارة، وتدعوه إلى دخول المنزل تارة أخرى، حيث تشعر بأن الكلب في منزلهم مثل جميع قاطني مركز تلك المحافظة، يفتقر إلى المقدرة على التمييز.

وكيف يستطيع قاطنو تلك المحافظة معرفة كفاءة ورغبات جياقوي قنغ أيضا؟ إنهم جديرون بمعرفة ذلك. وعلى سبيل المثال، عندما كان أهل المحافظة هناك لايزالون لايدركون ماهية الرسم الزيتي، كان جياقوي قنغ يعرف أن الرسم الزيتي هو الرسم

علـى قماش الرسـم، كما يدرك أن قماش الرسـم يجب أن يدهن بطلاء تحضيري قبل الرسم. وما استحوذ على إعجاب شياو مي أن جياقـوي قنغ لا يعرف أبدا الطـلاء التحضيري الذي يحتاج إليه قماش الرسـم، بل يعرف أن هذا الطلاء يحتاج إلى نوع من الصمغ الذي يغلي حتى يصبح جاهزا للاستعمال. ولم يكن في الحسـبان أيضا أنه يعرف أيضا اسم ذاك النوع من الصمغ... إنه صمغ غير عادي. وقد ذكر ذلك جياقوي قنغ لكوكبة من الشـبان عشاق الفن في المحافظة.

يسأل أحد الشباب، ويدعى جيو تشنغ: ما اسم ذلك النوع من الصمغ؟ ويعد جيو تشنغ من المولعين بالرسم.

لا يلتفـت جياقـوي قنـغ إلـى جيو تشـنغ، بل يركـز اهتمامه فقـط على عيون شـياو مي، ويمسـك عـن الكلام قليـلا، ويقـول: ذلك النوع من الصمغ اسمه الصمغ العربي.

اسمه الصمغ العربي.

جيـو تشـنغ يسـمع كلام جياقوي قنغ، كما سـمعته شـياو مي بشكل أكبر. وإذا كان الطعام والشراب يتسمان بالتفوق في الشعور بالطعم اللذيذ من الفم، إذن، اللغة تتحلى أيضا بنصيب من هذا الشعور من الجمال والقبح. وشياو مي تردد كلمتي الصمغ العربي تهامسـا، وتشـعر بأنهما في الفم تتدفقان وتتمعجان، وتبتلعهما وتلفظهما، كما تشعر بأنهما تتحليان بالحضارة والتناءي، والروعة والرومانسـية أيضـا. كما أصبحتا في الحال راقيتين ومدهشـتين لأن جياقـوي قنغ نطق بهما. والطفلة شـياو مـي تؤمن أصلا بأن ذوقها وميولها يفوقان مركز المحافظة، وحالما تراودها هذه الأفكار،

من السـهل أن تختلف في سـلوكها ومظهرها عن الآخرين بصفة خاصـة. والصمـغ العربي جعل أسـنان جياقوي قنـغ غير ناصعة البيـاض، وشـعره الأشـعث، ومظهره المـذري تتدهور بشـكل كبير. وترى شـياو مي أن ذلك لا يعـد نقيصة تنال من الرجل، بل تعتبر مـن ملامح النابغة الذي يتصرف تصرفـا حرا. ولا تولي اهتماما بنظرة الزوراء السـائدة بين ذوي السن نفسه، وتأخذ بزمام المبادرة وتقترب من جياقوي قنغ وتدعوه إلى زيارة منزلها. وفي الخريف، تستقبل مصلحة السياحة بالمحافظة رساما مشهورا جاء يرسم من الطبيعة في ذاك المكان، وكان جياقوي قنغ مسـؤولا عن مرافقته. كمـا كانت شـياو عـادة تصاحبهمـا من الأمـام والخلف. واسـتعار جياقـوي قنـغ آلة التصويـر من تلك المصلحـة خصيصا من أجل التقاط صور للرسام، وفيما بعد اختار منها الرسام صورة ووضعها في ألبوم الرسوم الخاص به. الرسام يدلف إلى الجبل ويرسم من الطبيعـة، ويجلس جياقوي قنغ خلف ظهـره. وكانت النتيجة أنه حظي بمدحه وثنائه. وأكد الرسـام أن رسمه من الطبيعة وتشكيل مقدرته، بل حتى ذكر بصورة مفرطة أن إحساسه بالألوان، شجعه ذلك كله على أن يضطلع بمزيد من الرسـم. ويتأثر جياقوي قنغ بكلمات الرسـام وتشحذ شجاعته ويسهب في الحديث مع الرسام، ويتناقش معه حول بعض الرسـامين الصينيـين والأجانب الذين يحبهـم، والذين يسـتخف بهم ويتجاهلهـم. وعندما كان يتحدث عـن عيـوب بعض هـؤلاء الرسـامين، كانـت كلماته حـادة وتصيب الهدف، فعلى سـبيل المثال، الرسـامون فلان وفلان وفلان، ويختار رسـاما واحدا مشـهورا، ويقول: رسـومه تروع المرء للوهلة الأولى،

وعند التفكير فيها مليا وبدقة تجدها عبارة عن ظلال الآخرين أو نتف من بعض الأجانب، وتعوزها مقدرته الفنية، وهل يكرس جهوده في الرسم؟ وأرى أنه ليس كذلك، فهو يرسم من خلال بعض المفاهيم المفككة. كما أخبر جياقوي قنغ الرسام بأنه رأى في يد أحد السياح كتابا بعنوان «هاوك نيه يناقش التصوير». ويقول جياقوي قنغ إن هاوك نيه يعتبر رساما يستطيع طرح بعض الأفكار غير المبتذلة في التصوير. ولذا استحوذ على إعجابه، وللأسف إنه لم يستطع أن يستعير هذا الكتاب من السائح. يشعر الرسام بالذهول إلى حد ما، حيث يقف أمامه شاب من مركز المحافظة ملامحه دميمة ويتحلى بالفهم حقا. ويشجع جياقوي قنغ مرة أخرى، ويطلب منه ممارسته الرسم بشكل أكبر للمرة الثانية، ويبذل قصارى جهده حتى يتمكن من المشاركة في معرض الرسم المزمع إقامته في المقاطعة. ويتولى الرسام أعمال لجنة التقييم في كل المعارض الكبيرة، وأخبر جياقوي قنغ أن يرسل رسومه وأن يولي اهتماما بأعماله بالتأكيد. يتأثر جياقوي قنغ ويشعر بأنه قابل صديقا حميما أخيرا. غير أنه لم يمسك ريشة الرسم بعد أن غادر منزل الرسام. وعمله الفني الذي يصور الطبيعة وحاز إعجاب الرسام يعلقه دائما في مسكنه الخاص التابع لمصلحة السياحة، وإطار الصورة مائل بعض الشيء، مما جعل الحجرة تبدو في حالة فوضى، بيد أنه لم يعدل هذا الإطار حتى يصبح مستقيما. وربما العمل الفني الذي يصور الطبيعة المعلق على الحائط بميل يعد الدليل المادي الوحيد على نبوغ جياقوي قنغ في الرسم.

ولا يمكن القول إن جياقوي قنغ لا يعشق الرسم، بيد أنه تعوزه التجاوب في رسومه. وتتجمد دائما حركة ريشته بعد نوبة من أفكار تجيش التأثر والحماسة. وعلى سبيل المثال، يشرح لشياو مي مرارا وتكرارا تصوراته في أحد رسومه على هذا النحو: حقل الذرة الصفراء في ذروة الخريف، ويتكدس على أديم الأرض كومة من الذرة قطفت للتو. وامرأتان ظهرهما أمام المتفرجين، تنحنيان لحصد الذرة. ونسيت نفسي كثيرا من جراء الحركات في ريشة هذا الرسم. والمغاير لهاتين المرأتين رايات تفضي بها اللوحة وتشبه أوراق الذرة الصفراء الذهبية. وينتشي جياقوي قنغ في تصوراته، كما تتأثر شياو مي أيضا بتلك التصورات. ولكن جياقوي قنغ يعزف عن الرسم مدة ثلاث سنوات. وكما جاء على لسانه أن حياته تشهد دائما بعض الأحوال التي أوقفت نشاطه في الرسم. وهو - على سبيل المثال - يئن بالشكوى من أن رئيس مصلحة السياحة يكلفه بأعمال إضافية، من إصلاح الطرق المؤدية إلى عدة مناظر جديدة في الجبل، وأنه ليس مهندسا، ولكن رئيس المصلحة طلب منه أن يختار أفضل الطرق، وقياس الكيلو مترات لتلك الطرق الجبلية، وإحصاء عدد المصطبات التي يحتاج إليها، ويحدد الأحجار الخضراء. ويحتاج ذلك القياس وتلك الإحصاء إلى أكثر من نصف عام. وفي أثناء ذلك، عاش تجربة حب فاشلة أيضا. والجنس الناعم في هذه التجربة، كانت فتاة جبلية عظمة خدها حمراء قانية، وأسنانها بارزة، بيد أنها تتمتع بالبنية القوية. وفي اللقاء الأول بين الطرفين، جاشت عواطف جياقوي قنغ، والبنية الطبيعية

القوية التي تتمتع بها الفتاة جعلته تنتابه مشاعر التهام جسدها. ولكن تلك الفتاة الجبلية ذات البنية القوية لم تقع في غرام جياقوي قنغ. وقد سمع - بعد ذلك اللقاء - أن الفتاة تمقت يديه الصغيرتين، ولا تكترث أيضا بأنه يحمل هوية الموظف العام الحكومي، ولا تكترث أيضا بالراتب الثابت الذي يتقاضاه كل شهر. ولكن جياقوي قنغ لم يكره تلك الفتاة، ويفكر في أن يديه صغيرتان بعض الشيء مقارنة بالرجل العادي. وفي المعتاد، يرغب في أن يدس يديه داخل أكمامه الطويلة، ويجعله ذلك لمن يراه بأنه لا يضطلع بأي عمل ويشعر بالبرد أيضا حتى لو في فصل الصيف.

والآن، يجيء الليل وتنتشر الظلمة على جبل الأحجار السوداء، ويضع جياقوي قنغ يده على كتف شياو مي بعد تردد بضع مرات في وضع تلك اليد الصغيرة. ولا تجرؤ تلك اليد على أن تضغط بقوة على كتفها الذي يبدو مثل قطعة من المانتو (خبز على البخار) تغطسها اليد في الماء الساخن. وتلك اليد لا تغطي كتفها بصورة كاملة، ثم تحيد بسرعة عن الكتف كأنما تسبر أغوار شياو مي هل تبقى على كتفها أم لا، حتى مالت بوجهها نحو جياقوي قنغ. وكان ذلك إشارة إلى أنها لا تكره اليد فوق كتفها، كما شجعته أيضا على أن يقدم بعض التلميحات. وشعر في التو بالحرارة المنبعثة من وجهها وأنفاسها، أنفاسها المتعثرة بعض الشيء، مثل رائحة الحشائش التي يطلق عليها في الجبل «رائحة الخيار». إنها المرة الأولى التي يقترب فيها كل منهما نحو الآخر. ويعتقد جياقوي قنغ أنها بالتأكيد تستطيع شم رائحة

فمه. ويشعر بأن رائحة جسمه وفمه كريهة، فيكتم أنفاسه، ويدور رأسه، ويسحب يده التي وضعها فوق كتف شياو مي.

ومن المحتمل أن شياو مي شمت الروائح الكريهة المنبعثة من جسم جياقوي قنغ وفمه، وربما إعجابها به كان كافيا أن يحد من وطأة الضيق الذي تشعر به من جراء تلك الروائح، ومن المحتمل أيضا أنها لم تشم منهما رائحة بصورة أساسية، حيث هناك بعض الأطفال الإناث اللواتي يستطعن عدم الاكتراث بكل شيء في بعض اللحظات. ولكن جياقوي قنغ أشاح بوجهه، وسحب يده، ويقول بصورة تشغلها عن تلك الرائحة، أنت تذهبين إلى بكين، وتستطيعين دراسة ما تشاءين، ولكن عليك أن تتذكري دائما ألا يكون ذلك مبتذلا مثل جيو تشنغ المبتذل، لقد بات مبتذلا لا يطاق.

ترغب شياو مي في السفر إلى بكين من أجل تطوير نفسها. وفي اللحظة التي تنتشر فيها ظلمة الليل تودع جياقوي قنغ وهي جالسة على جبل الأحجار السوداء. وبعد أن يسحب جياقوي قنغ يده من على كتف شياو مي، يهزأ من الشاب الذي يدعى جيو تشنغ صاحب الابتذال الذي لا يحتمل، وينخرط في ذلك وقتا طويلا، كأنما ابتذال جيو تشنغ بدد تطلعات شياو مي، ويجب عليه أيضا أن يغدق عليها بمشاعر أكثر عمقا.

(٢)

جيو تشنغ – في الأصل – شاب عاطل في المحافظة، ودرس الرسم الصيني التقليدي في الدورة التدريبية الفنية القصيرة التي أقامها المركز الثقافي، وإسهاماته عادية. ثم تدرب على الخط ولم يحرز تقدما أيضا. ولكنه بات مشهورا في المحافظة على حين غرة، لأنه غير تفكيره، ولم يعد يرسم ويكتب بيده، بل يستخدم إبطه في الكتابة أو في الرسم. ونصب أمام مدخل المنزل طاولة وفرش فوقها ورق شيوان، وصنع بنفسه فرشاة الكتابة الطويلة وتأبطها، ثم بدأ ممارسة الفن الجديد. ويرسم الذئب وابن آوى، والنمر والفهد، ويكتب بعض الجمل المفعمة بالقوة والعظمة، ويجذب المارة، كما يجذب اهتمام محطة تلفاز المحافظة. ويقوم صحافيو هذه المحطة بتصوير بعض المشاهدات التي يستخدم فيها إبطه في الكتابة، ويجرون معه حوارا ارتجاليا. وعندما سئل لماذا يستخدم إبطه في الكتابة؟ يجيب جيو تشنغ بلا جهد فكري: لأن يدي أصابهما مرض غريب، ولم أستطع أن أمسك القلم فجأة، وأنا مولع بالفن، وربما تتعرض حياتي للخطر إذا لم أرسم أو أكتب مدة يوم واحد. ومن ثم، عقدت العزم على استخدام إبطي في المضي قدما في ممارسة

الفن، حيث إن استمرار الحياة يكمن في الاضطلاع بالفن. وبعد ذلك، عبر بصورة صارمة وحازمة أنه إذا أصاب المرض إبطه، فإنه سيستخدم النصف السفلي من جسمه مثل: عطفة الرجل، أو الشقوق بين أصابع القدم وغيرها من الأجزاء التي يمكن أن تمسك فرشاة الكتابة، حتى يواصل اضطلاعه بالفن، وأذاعت محطة تلفاز المحافظة الحوار الذي أجراه الصحافي مع جيو تشنغ، وجذب ذلك محطة تلفاز المدينة. وبعد ذلك، أقامت محطة تلفاز المدينة حفلة فنية شاملة، وبالمصادفة يمكن اعتبار جيو تشنغ يكتب بالإبط من برامج تلك الحفلة. وتدعوه محطة تلفاز المدينة إلى قاعة التمثيل ليعرض فنه، ويعود إلى المحافظة ويصبح شخصية مشهورة. ولم يعد ينصب طاولة أمام مدخل المنزل، بل يؤجر دكانا في الشارع، ويعلق عليه لافتة كُتِب عليها: معهد جيو تشنغ لدراسات الخط وفن الرسم. إنه يبيع الكتابة والصور، وأحيانا يدعوه المسؤولون في حكومة المحافظة إلى أن يحل ضيفا عليهم. وعندما يأتي شخص مهم من السلطات العليا، وبعد أن يحتسي الخمر ويتناول الطعام، يقول رئيس المحافظة لدينا هنا رجل فريد من نوعه، ويدعوه - بعد فترة وجيزة - إلى عرض فنه.

وبينما يسلك جياقوي قنغ طريقه الجبلي على امتداد المناظر السياحية ويحصي الأحجار، كان جيو تشنغ أصبح رساما مشهورا ومعترفا به من قبل أهل تلك المحافظة. وانتهز جيو تشنغ الفرصة السانحة وأدار فندقا بسرعة جدا، ويستطيع زبائن الفندق الذين يتناولون الطعام الحصول مجانا على صورة

ممهورة باسم صاحب الفندق الذي يمسك القلم بإبطه. وفي أوقات العمل، يدعو جيو تشنغ ثلة كبيرة من الشخصيات البارزة في المحافظة، فضلا عن الذين حضروا معه الدورة التدريبية الفنية القصيرة، كما دعا شياو مي وجياقوي قنغ. ويقف جيو تشنغ أمام المدخل يستقبل الضيوف بنفسه، ويصافح كل واحد منهم بيده، إنها يده المفعمة بالمهابة والحزن، والتي قيل إنها لم تعد قادرة على مسك القلم مرة أخرى، ويقول: أستعيد صحتي، ستشفى يدي قريبا. في تلك اللحظة، تحدق شياو مي وجياقوي قينغ في جيو تشنغ مطلق المحيا والمزهو بنفسه، وربما تنتابهما المشاعر المحفزة، وفي رأيهما أن جيو تشنغ يجب أن يترفع تماما عن الألاعيب الصغيرة من الانحطاط، وعلى أي حال، أدركا أنهما لم يحرزا تقدما من منظور ذلك الانحطاط، وتقرر شياو مي مغادرة هذه البيئة المبتذلة الشريرة والسفر إلى بكين، حيث تقطن خالتها الكبرى، للتجول في أصقاعها. أما جياقوي قنغ، فقد شهدت مثله الفنية العليا وهدف الكفاح لديه التحفيز والدفع من جديد في تلك اللحظة، وتذكر ذاك الرسام في المقاطعة، كما جال بخاطره تشجيع شياو مي له مرات عديدة، وشعر بأنه لم يعد يستطيع أن يحيا بلا طموح. ووظيفته مصمم فني في مصلحة السياحة لم تكن أبدا منتهى الطموح في حياته، إن طموحه لم يعد أبدا داخل مركز المحافظة. وبعث برسالة مفعمة بالمشاعر المتدفقة إلى ذلك الرسام، وطلب منه برجاء أن يقيم بجواره، ويريد أن يقيم في جو فني حقيقي يتدرب فيه على الرسم. وبعد فترة وجيزة، تلقى رسالة من الرسام ردا على

خطابه، أخبره فيها بأنه من المهم أن يمارس الرسم كثيرا، وإذا لم يستل ريشته في أي مكان، فإن مغزى هدفه لن يتحقق بصورة كبيرة، «فما بالك وأنت موظف حكومي، ولذا من اللازب أن تفكر بهدوء وتروٍ، ولا تستطيع أن تتخلى عن وظيفتك وتغادر وحدة عملك». وبعد أن قرأ جياقوي قنغ رسالة الرسام، أصبح - على النقيض - غير مستقر بشكل أكبر، وكتب تقريرا إلى المصلحة حول توقفه عن العمل واحتفاظه بالوظيفة، وحمل حقيبة السفر على ظهره متوجها إلى مركز المقاطعة.

أقام جياقوي قنغ في مركز المقاطعة مدة خمس سنوات، وفي البداية شمله الرسام برعايته، وجعله يسكن في حجرة الرسم التي تشهد حاليا التجهيزات. وتلك الحجرة كانت أصلا وحدة سكنية تتألف من أربع حجرات وتم تعديلها. وبدأ مشروع التعديل في التو عندما حضر جياقوي قنغ إلى مركز المقاطعة. وينبري جياقوي قنغ ويتولى مسؤولية الإشراف على المشروع. وما يطلق عليه الإشراف عبارة عن أن يركز اهتمامه ونظراته على عمال البناء والتجهيز، ويرى الأشياء الثانوية التي يحتاجون إليها من المسامير أو براميل الدهان الأبيض، ويشتريها بالإنابة عن صاحب المنزل. وهناك حجرة من بين تلك الحجرات الأربع لا تحتاج إلى تجهيزات، إنها مخزن المواد الخام الخاصة بالرسام، والتي تحتوي على كثير من ألبومات رسوم الرسام. وأقام جياقوي قنغ في تلك الحجرة. وبدا متأثرا جدا لأنه عثر في التو على كتاب «هاوك نيه يشرح التصوير» بين مجموعة كبيرة من ألبومات الرسوم. ومن ذلك الحين، يأخذ ذاك الكتاب بيده دائما ويدردش

مـع عمال التجهيـزات. وحتى لو لم يسـتطع أن يأخذه في يده، فإنـه يضعه في مـكان يتمكن كثيرون من رؤيتـه. ويضرب طاولة أعمـال النجـارة بالكتاب، ولا يكترث إذا كان هـذا التصرف يعوق الأعمـال التـي يضطلع بهـا العمال أم لا؟ ثم يسـألهم: أتعرفون ذلـك الأجنبي؟ وطبعـا، العمال لا يعرفون، وكذلك لا يريدون أن يعرفـوا ذاك الأجنبـي. وفي موقع العمـل داخل الحجرة تختلط معـا أصـوات المنشـار الكهربائـي والفـأس والأزميل، والأسـمنت ويـلاط الجدران. ويدل تصـرف جياقوي قنغ على أنه لا حول له ولا قوة، ويتسـم بالسـخرية أيضا. وهناك مقولة تستطيع فقط أن تفسـر سلوكه ومفادها: إنه يريد أن يخبر هؤلاء العمال: على الرغـم مـن أنه - فـي الوقت الحاضر - يعيـش معهم في حجـرة واحـدة، ولكن أنا وأنتم لسـنا واحدا، وفكـري منخرط في الفن. ولكـن العمـال لم ينظـروا إليه من عـلٍ، من جراء ذلـك إطلاقا، لاسيما عندما يطلب المشاركة معهم في مصاريف الطعام.

ينتهج الرسام أسلوبا واضحا في التعامل، فيما يتعلق بتكاليف معيشـة جياقوي قنغ وطعامه، حيث طلب من الخادمة أن ترسل الأرز، والدقيق، والبيض، وزيت الطعام وغيرها، إلى جياقوي قنغ، بالإضافة إلى أن الرسـام يعطيه خمسـمائة يوان كل شـهر حتى تنتهـي أعمال التجهيزات. وذلك تعبيرا عن امتنانه وشـكره إياه لاضطلاعـه بـ «الإشـراف» علـى عملية التجهيـزات. وكان تفكير الرسـام شـاملا وواقعيا أيضـا. ولكن جياقوي قنـغ يحمر وجهه ويشـعر بأنـه من الصعـب قبول ذلـك، ويفكر في ماهيـة ذاته إذا قبل عطاء الرسام على هذا النحو، فالرسام أغدق عليه بتكاليف

المعيشة الجيدة والطعام، ويساعده في إنجاز أعماله الصغيرة لبضعة أشهر، فهل هناك مصاريف حياتية أخرى؟ وعقد العزم على رفض ذلك. يقول الرسام: أنت تحتاج إلى النقود، وتبدو النقود أكثر إلحاحا وأهمية في المدينة. وأنت عندما ترسم تحتاج إلى شراء الألوان، وريشة الرسم، كما أنك تدخن أيضا. جياقوي قنغ تنقصه الثقة بالنفس، ولكنه يتكلم باعتزاز قائلا: أطلب من أسرتي أن ترسل إليَّ نقودا، شقيقتي الصغيرة تمد يد المساعدة إلي. الرسام يدرك إدراكا كاملا حقيقة الأمور، وترتسم ابتسامة على ثغره ويقول من الأفضل أن نعطي لك النقود. ويمتلك جياقوي قنغ تكاليف المعيشة، بل حتى يوفر ثمن الطعام أيضا إذا قدم إليه الرسام الدقيق والأرز كل يوم ليتناول طعامه. ولكن كما ذكرنا أعلاه أنه إنسان خامل وكسلان، فضلا عن أنه ليست لديه أطماع في النقود، ويؤثر تناول وجبات طعامه في مطعم صغير، وينفق فلوسه في الطعام. ويغض الطرف عن طبقة سميكة من الغبار والأتربة التي تختلط فيها النشارة والأسمنت وتغطي أكياس الأرز والدقيق وسلال البيض في حجرة نومه. بينما يرى عمال النجارة ذلك ويقولون إنها خسارة، إنها حبوب غذائية جيدة. ويقول جياقوي قنغ: إذن، أعطيها لكم. والعمال يطبخون الوجبات الثلاث في حجرة الرسم كل يوم، ويعملون بجد واجتهاد، والحجرات التي تشهد الترتيب والتجهيزات قذرة جدا، ولكن العمال لا يهملون الطهي، ويهتمون بالتغذية الجيدة، ويوزعون السعرات الحرارية في أجسامهم توزيعا مناسبا، حيث يوزعون بجلاء الأيام التي يتناولون فيها السمك المقلي، وأيام

اللحم المسلوق، ويعينون المسؤول عن شراء الخضروات، والمسؤول عن الطبخ. ويشعر جياقوي قنغ بالإعجاب بهم في أعماقه، لأنهم ثلة من الأفراد يتحلون بالمهارة الفنية. وينجزون الأعمال بطريقة منهجية ونظامية، وبإدراك كامل. وعندما يحمل بيده الصغيرة الطعام الذي طبخه العمال في أوقات فراغهم، يشعر - في لمح البصر - بمركب النقص. والآن أكثر ما يعوزه هو الوقت، لدرجة أنه لا يستطيع أن يعقد العزم أن يطهو لنفسه وجبة طعام. وأين يكمن هدفه؟ لقد حضر أصلا إلى مركز المقاطعة من أجل دراسة الفن، ولكنه بات إنسانا بلا عمل ينتظر - بصفة خاصة - تناول الطعام المجاني الذي يطبخه عمال التجهيزات. ويتمتع بالفرص العديدة لتقليد أعمال الرسام، كما يستطيع الذهاب معه إلى موديل الرسوم. ولكنه لا يعرف لماذا دائما لا يحرك ريشته، كأنما هناك دائما هدف أكثر غموضا، وأكثر مثالية ورفعة يعوقه عن تحريك ريشته. وكانت النتيجة أن ذلك الهدف الأسمى ينأى عن الواقع بشكل أكبر.

(٣)

اكتملت عملية تعديل حجرة الرسم بعدئذ. ويقوم الرسام بتقديم جياقوي قنغ إلى دور النشر لأنه زعم أنه يعشق التصوير في سويداء قلبه بعد قراءته لكتاب «هاوك نيه يناقش التصوير». وبعد أن التحق بدار النشر، أصبح - بصفة مؤقتة - عاملا مؤقتا في حجرة تحرير الرسوم. وكان ينام في المكتب مدة عدة سنوات، واستطاع تماما أن يتقبل مكرها أحوال مرقده. ومعاملته للناس وأخلاقه الكريمة جعلاه يصادق عددا من الأصدقاء. والنقود التي يكسبها كانت محدودة. وعلى أي حال، كان يدعو الآخرين إلى تناول الطعام، سواء اشتغل أم لا. وبعد انقضاء فترة طويلة، حضر إلى مركز المقاطعة بعض أصدقاء الأصدقاء من مكان آخر، وذهبوا إليه يبيتون عنده ويزاحمونه في المكتب الذي ينام فيه. وكان يسافر في مهمة مع هيئة التحرير أحيانا، ويوفد للسفر للاضطلاع ببعض الأعمال الثانوية التي لا قيمة لها أحيانا أخرى. وهناك محافظة معينة تبغي توسيع نطاق شهرتها، وتريد طبع دليل السياحة الذي يحتوي على الصور المنوطة بالمقالات، كلاهما في حالة رائعة من أجل الدعاية للمحافظة، وتتعهد دار النشر بإنجاز ذلك العمل، ويتحمل

جياقوي قنغ مسؤولية التقاط الصور، ويرتدي سترة كبيرة على غرار صحافي التصوير، والتي تغص بالجيوب في الأمام والخلف. وكانت مهمته تصوير بضعة مناظر سياحية وأنواع عديدة من المنتجات المحلية الخاصة، مثل: فخذ الخنزير الإمبراطوري، والدجاج المشوي المشهور منذ مائة سنة. ومن أجل تصوير طبق فخذ الخنزير الإمبراطوري وبضع دجاجات مشوية، كان يأكل مجانا ويسكن مجانا في مصلحة السياحة التابعة لتلك المحافظة، وقد استغرق التصوير شهرين على غير المتوقع. وإذا حثته المحافظة على السرعة في العمل، يقول: العمل المتأني يعطي نتائج ممتازة. وبعد فترة طويلة، تستعيد ذاكرته حياته منذ عدة سنوات خلت، وبالتأكيد يتذوق طعم الحياة خلال هذين الشهرين بشكل خاص ودقيق جدا، حيث كان يقيم في حجرة خاصة في دار الضيافة التابعة لمصلحة السياحة ويرافقه مسؤول هذه المصلحة، ويقدم له الوجبات الثلاث يوميا، ويخاطبه باحترام قائلا: الصحافي جيا. ولم تشهد حياته مثل تلك الأيام قط، وتفجرت ينابيع أفكاره المولعة بالفن داخل أروقة حجرته المفردة الفاخرة. كما انتشر في تلك الحجرة الفاخرة بقوة أكبر خموله الذي لا يقل مثقال ذرة عن ولعه بالفن. وكان يغط في نوم مسهد دائما ولا ينهض من فراشه، ويتناول طعام الإفطار متأخرا في الساعة العاشرة. وكان يتطلع بشغف إلى من يقاسمه متعة الحرية والأيام الجميلة. وركب هاتف المسافات الطويلة في حجرته، واتصل بالفتاة شياو مي في بكين. وفي عطلة نهاية الأسبوع،

تستقل شياو مي الحافلة السريعة، وتغشى تلك المحافظة من أجل زيارة جياقوي قنغ.

وفي تلك الأثناء، تزوجت شياو مي، وأقامت في بكين لعدة سنوات، وكانت تساعد خالتها الكبرى دائما في تشغيل دكان أدوات الفنون الجميلة. وعرفت شياو مي - في ذاك الدكان - كثيرا من المواد الخام التي تستخدم في الرسم، كما عرفت العديد من الأنواع المختلفة للطلاء التحضيري للرسم الزيتي على قماش الرسم. كما عرفت أيضا أن الرسامين يشترون الصمغ العربي ويغلونه ويستخدمونه في الطلاء التحضيري. وكان ذلك في منتصف القرن الفائت. وفي الوقت الحاضر، أصبح الطلاء التحضيري لقماش الرسم جاهزا. وبالإضافة إلى ذلك، هناك أنواع عديدة وكثيرة من أقمشة الرسم التي تدهن - عند بيعها - بالطلاء التحضيري وتصبح جاهزة للاستعمال. ويتردد لسانها إلى حد ما أن تخبر جياقوي قنغ بتلك الأشياء، كما أنها لم تعد توليه اهتماما من جراء ذلك أيضا، وطبعا، إنها تقدر ليس استخدام الصمغ العربي مرة أخرى، بل ما تقدره وتثمنه هو تطلعاتها إزاء الحضارة والرومانسية في ذاك العام. وبسبب أن شياو مي الواقعية هي الحقيقة، ولذلك حماسة الرومانسية التي غمرتهما وهما يجلسان على جبل الأحجار السوداء في مسقط رأسهما باتت أكثر شبها بما جمعته ولملمته في الماضي البعيد. إن دكان أدوات الفنون الجميلة في بكين لم يجعل شياو مي تنسى نفسها وتعتقد أنها انخرطت في الفن، بل على العكس، اكتشفت هنا أن هناك مسافة كبيرة بينها وبين الفن.

وتفكـر بموضوعيــة أنهـا – في الواقـع – منذ زمـن بعيد لا تدري أنهـا لن تخـرق الأرض ولن تبلغ الجبال طـولا. وتتقبل باحترام ذاتــي وحكمة المســاعي الحثيثة من قبل الشــاب الــذي يعمل في دكان تصنيع إطارات الصور المجاور. وتغادر شياو مي بيت خالتها الكبـرى بعــد زواجها، وتعتمــد على مهارة ذاك الشــاب والحفاظ علــى الزبائن القدامى، ثم يفتتحان دكانا لإطارات الصور خاصا بهما، ويســتوردان المواد الخام مباشرة من كوريا الجنوبية، وكانت أســعار بضاعتهمــا أرخص من ســائر الدكاكين الأخــرى، فتمتعا بالســمعة الطيبــة أيضــا. ولم تعــرف أيامهمــا الثــراء، ولكنهما ينعمان بالاستقرار والهدوء.

تتبادل شــياو مــي، التي تنعم بالهدوء والاســتقرار، المعلومات مع جياقوي قنـغ دائما. وترى أنه انتقل فعلا إلى دار النشــر على مســتوى المقاطعــة، وتعتقد أن مركز المقاطعــة قبل أخيرا مهارته وكفاءتــه واهتمامه. كمــا أنها قبلت دعوة جياقــوي قنغ باعتباره صديقــا قديمــا موثوقــا بــه، وتكن له دائما المشــاعر السـرية من التأثر الشــديد. ومنذ عدة سنوات خلت، وعندما كانت تودعه في جبل الأحجار الأســود، إذا لم يكن رجلا شــريفا مســتقيما، فإنه يســتغل جيشــان عواطفهما آنذاك، وهي تكاد تكــون على مقربة مــن «خطوة خاطئــة قد تورث الندم مدى الحياة». وتتمتـع شــياو مــي ببعــض خبرات الحياة، وتعــرف أن الرجال من ذوي الشــرف والاســتقامة علــى هــذا النحو ليســوا كثيريــن. ووصلت بســلام إلــى تلك المحافظة، وحظيت بالترحيــب الحار المخلص من قبل جياقـوي قنــغ. إن الحجــرة الخاصة فــي دار الضيافة، والســترة

الكبيـرة التي يرتديهـا جياقوي قنـغ، وآلة التصويـر فوق الطاولة، وبكـرة الفيلـم، وفيلـم القلـب (*) - تـدل جميعها علـى أن أحوال جياقـوي قنـغ لا بـأس بها. جياقـوي قنغ يقنع شـياو مي بطريقة المواربـة والمراوغة في أثناء تنـاول طعام الغداء؛ إنه - في الأصل - كان ينتقـل إلى معهد الرسـم ليكون رسـاما متخصصـا، بيد أنه سـمع أن الرسـامين هنـاك يتعهـدون بعمل ملح مـن الاضطلاع بالأعمال الفنية ويقدمونها هدايا في عيد المرأة، وعيد الطفولة، وعيـد العمـال، والعيد الوطني، وأنه يمقـت كثيرا ذلك ولا يتفق مع مسـاعيه الفنية. يخاطب شياو مي بصوت عال، وثغره مفعم بالدخـان، ويلفـظ بنفخة عظام الدجاج تـارة، إنه عظام الدجاج المشوي الذي صوره في تلك المحافظة، ويعود أدراجه إلى حجرته بعـد الغـداء. وتطلـب شـياو مـي أن تشـاهد فيلم القلـب الذي صوره، ويسحبها إلى النافذة ويجعلها تسلط ضوء الشمس على الفيلم. تشـاهد شـياو مي صورا كثيـرة للدجاج المشـوي وأفخاذ الخنازيـر. وبعـد أن يفحـص تعابير اليأس على وجه شـياو مي، يقـول جياقـوي قنغ شـارحا موقفـه أن الدجاج المشـوي وأفخاذ الخنازير كانا أمرا بالمصادفة ولديه كثير من التصورات الفجائية إزاء المناظـر فـي ذاك المكان، وكل ما في الأمـر أن التقاط الصور يحتـاج إلـى الوقـت حقا. أجـل، الوقت، إنهـا الكلمـة التي يؤكد عليها بصورة أكثر بهجة.

الوقـت متأخر، وتسـتعد شـياو مـي للمغـادرة، وقبيـل الوداع تهـدي سـاعة معرفة لأوقات الفراغ والتنـزه لجياقوي قنغ ماركة

(*) تحويل الصورة الموجبة إلى سالبة والعكس بالعكس. [المترجم]

«أديدس». وقالت إن هذه الساعة ليست رفيعة المستوى، ولكنها مناسبة للاستخدام خارج المنزل، كما أنها أكثر ملاءمة له في تلك الأيام. وتطلب منه أن يمد ذراعه، وتضع الساعة بنفسها فوق معصمه. كما ذكرت أنها عندما تبيع أدوات الفنون الجميلة ترى الأشخاص من أوساط فن الرسم يروحون ويجيئون ويشترون تلك الأدوات، وفي بعض الأحيان، تتخيل أن جياقوي قنغ يدفع باب الدكان ويدلف إلى الداخل، ويطلب منها أن ترشده لابتياع أدوات الفنون الجميلة، وهي تساعد في الاختيار ويشتري بسعر الجملة. كما قالت في حنو وود إن تجارة إطارات الصور تنطوي على المبالغة والغلو، وإذا كان لديه رسوم فنية ويحتاج إلى إطارات للصور، فإنها وزوجها يقدمان له الاستشارة. تسح دموع جياقوي قنغ بعد أن سمع كلمات شياو مي. وبعد أن استقلت الحافلة الأخيرة للمسافات الطويلة، ينخرط في نوبة حقيقية من الاستهجان الذاتي. إن جياقوي قنغ لا تعوزه إطلاقا المقدرة على محاسبة الذات، ويفكر متى شغل ذاته وأضفى عليها الشغف بالمظاهر هكذا؟ وهل من المعقول أنه لا يشبه الإنسان المخادع أمام شياو مي؟ ولكن هل يضمر في نفسه أهدافا خبيثة؟ إنه خدعها حتى لا يجعلها تشعر باليأس نحوه أبدا. والخداع القائم على هذا المقصد، كيف يكون نوعا من النوايا الحسنة؟! ينهمك جياقوي قنغ في النوم المسهد مرة أخرى في خضم فترة طويلة من الفوضى الفكرية من الاستهجان الذاتي والتبرير الذاتي. وفي اليوم التالي، تناول طعام الإفطار متأخرا أيضا، بعد الساعة العاشرة صباحا.

ويعـد ذلك، مصلحة السـياحة في تلـك المحافظة لم تتحمل – بصفـة عامـة – «تباطؤ العمل» من جانـب جياقوي قنغ حقا، وتستشاط غضبا، وتبلغ دار النشر التي بدورها استدعت جياقوي قنغ وأبلغته بذلك، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مسـؤولي دار النشر تقدمـوا بطلـب صرفه من العمل فـي نهاية المطاف. وتشـهد دار النشر عملية الإصلاح، ويتقدم إليها نفر كبير من الشباب الذين تلقـوا تعليمـا جيدا، ويتحلـون بالخبرة العملية فـي العمل، ولا يرغب أحد في استخدام جياقوي قنغ ذي الفعالية المتدنية هكذا، ويـده خاملـة على هذا النحو، حتى لو كان ذاك الرسـام المشـهور قدمه إلى دار النشـر. ويبدو أن جياقوي قنغ لا يسـتطيع المكوث فـي مركـز المقاطعة، وربما يجـب أن يعود إلـى محافظته، يرجع إلى مصلحة السـياحة فـي محافظته. ولكن مصلحة السـياحة الصغيرة التابعة للمحافظة تشـهد عملية إصـلاح أيضا، وتُولّى المناصـب فيهـا من خـلال المنافسـة، ووظيفة المصمـم الفني قد تبوأها آخرون. وعقدت المصلحة اجتماعا في وقت مبكر لمناقشـة هـذا الموضـوع، وفي ضوء سياسـتها اعتبرت جياقـوي قنغ – في الواقـع – أنـه تـرك عمله بصـورة تلقائيـة. وتزامن مـع ذلك أن شـقيقته التـي تمنحه مسـاعدات ماليـة أو عينية لـم تعد تقدم له تلك المسـاعدات؛ لأن طفلها سـوف يلتحق بالمدرسة المتوسطة الخاصـة. جياقوي قنغ يزور الرسـام ليغدق عليـه بأفكاره، ويراه الأخيـر أنـه يتمنـى أن تنشـق الأرض وتبتلعه من شـدة الخجل، ويقول المكان الأسـلم بالنسـبة إليك ربما أن ترجـع أدراجك إلى المحافظة.



(٤)

في اليوم التالي لعودته إلى المحافظة، يغشى جياقوي قنغ مطعم جيو تشنغ ويجلس في حجرة خاصة ويحتسي الخمر. ومنذ خمس سنوات خلت، النشاط التجاري في مطعم جيو تشنغ جيد دائما، وفي وقت قريب، وصل جيو تشنغ الطابق الأول بالطابق الثاني. وعندما سمع أن جياقوي قنغ عاد من المقاطعة دعاه - بصفة خاصة - إلى تناول الطعام. وينطوي ذلك على بعض التباهي والتفاخر. والأهم من ذلك التعبير عن المشاعر القديمة تجاه معارفه القدامى. ومركز المحافظة صغير جدا، والذي لا تراه فيه لعدة سنوات هو العدو. كما أن ذاك المركز يجعلك تتولد لديك المشاعر الحميمة المتفردة لهذا المكان الصغير. ومن المؤكد أن جيو تشنغ مازال لديه الألاعيب الصغيرة المنحطة، كما وصفه جياقوي قنغ، بيد أنه لا يعامل الآخرين بأسلوب جارح إطلاقا. وجياقوي قنغ يشعر أصلا بالخزي أن يدعوه الآخرون إلى تناول الطعام، ونظرا إلى أنه لا يمتلك ثمة شيئا يمكن الاعتماد عليه في هذه الدنيا، ومن ثم بات خالي الوفاض حقا. فضلا عن أنه حتى لم يستطع الحفاظ على مسكنه الخاص التابع لمصلحة السياحة، واضطر إلى أن

يبيت في منزل شقيقته بصورة مؤقتة. وعلى أي حال، إذا رفض دعوة جيو تشنغ ربما يجعل ذلك الطرف الآخر يرتاب فيه، كأنما عاد إلى مسقط رأسه غير مكلل بالفخار، ولا يحمل في جعبته مآثر جديدة يتباهى بها في مركز المحافظة. إذن، يجب عليه أن يلبي دعوة جيو تشنغ.

يدخل جياقوي قنغ الحجرة الخاصة في المطعم، وفي معصمه ساعة «أديداس» مهداة من شياو مي، ومرتديا سترة التصوير الكبيرة المهداة من دار النشر عندما ترك عمله بها. ويقول بمجرد أن أجلس الآن أشعر بالصداع، خصوصا عندما رأت عيني الطاولة الزاخرة بالخضروات، وكنت في المقاطعة نأكل اليوم بيوم، وأستطيع أن التهم طاولة وليمة بعشرة آلاف يوان، ولا أتناول الطعام مرة أخرى. ويسأل جيو تشنغ: هل لديكم طعام خفيف هنا؟ يتحرى جيو تشنغ فخامة جياقوي قنغ، ويقول في عجالة يوجد طعام قوقحان المروج النيئ البارد، ثم يطلب جيو تشنغ من خادمتين أن تقوما على خدمته على وجه الخصوص. جياقوي قنغ لم يقترب من الجنس الناعم ردحا طويلا، ويشعر بالارتباك ويجول ويصول في الحديث معهما. ويشعر بأنه يجب أن يكون الفن مدخل حديثه، حيث يكمن موطن قوته. ويقول: هل تعرفان ما يطلق عليه الرسم الزيتي؟ أتعرفان الرسم الزيتي... يتم رسمه على أي شيء؟ أتعرفان ما الطلاء الذي يدهن به قماش الرسم الزيتي؟ أتعرفان اسم ذلك الصمغ؟

تضحك الخادمتان ضحكة مكبوتة، وهما تألفان الضيوف والكوادر والتجار، بيد أنهما لم تعرفا شخصا مثل جياقوي قنغ

علـى هذا النحو، ولا تفهمان كلامــه، ولم تبدوا اهتماما بكلامه، وما علاقاتهما بدهان قماش الرسم بالصمغ، وحتى ما اسم ذلك الصمغ، أمعقول أنهما تهتمان وتقدحان ذهنهما في تخمين ذاك الاسـم؟ ولا يمكن ذلك إلا إذا شـبعتا واتخمتا. جياقوي قنغ لم يتلـق إجابـة مـن الخادمتين، ولم يسـتطع - أخيـرا - أن يكبت صرختـه قائـلا اسـمه الصمغ العربـي، «الصمـغ العربـي» آه - على غرار ما فعل منذ عدة سـنوات خلت عندما أخبر شـياو مي وجيو تشـنغ اسـم ذاك الصمغ. ولكن، ونظرا إلـى أن الخادمتين الواقفتين أمامه سمعتا كلامه بلا مبالاة هكذا، فإن الصوت الذي تفـوه به من «الصمغ العربي»، وهـو أصلا من الحضارة، بدا ذلك الصـوت منعـزلا متخلفـا. وإذا - في ذلك الحـين - غير طريقة كلامــه، فمثلا يأخذ كما يشـاء علكة ملقاة علـى طاولة الطعام، ويقـول لهما: أتعرفان العنصر الأساسـي فـي تركيب العلكة؟ إنه الصمــغ العربي! وربمـا يثير اهتمام تلـك الخادمتين إذا تصرف وتكلم على هذا النحو: من لم يمضغ علكة؟! حسـنا، في الصين عـدد الذين يمضغـون العلكة ليـس قليلا، ولكن الذيـن يعرفون أن العنصـر الأساسـي فـي العلكة هـو الصمغ عددهـم بالتأكيد ليس كثيرا. وللأسـف، فإن معرفـة جياقوي قنغ بالصمغ العربي تقتصـر فقط على الطـلاء التحضيري لقماش الرسـم الزيتي، ومـن ثـم، حضوره لايزال عاجزا عن جـذب هاتين الخادمتين في المطعـم بمركز المحافظة. يشـعر بعدم الارتياح بعض الشـيء، ثم يسـأل الخادمتـين قائـلا: هل تعرفان الـدول العربيـة؟ بالتأكيد تعرفان العراق، البقعة السـاخنة في المعمـورة. تعرف الخادمتان

أن العـراق يخـوض حربا ضد الولايـات المتحدة، ويذيـع التلفاز ذلـك كل يـوم، ولا تعرفـان أكثـر مـن ذلـك، وعلـى أي حـال، مـا علاقـة ذلـك كله بجياقـوي قنغ؟ إنـه ليـس عـائدا مـن بغـداد، كمـا أنـه لا يهتم بتلـك الحرب حقـا، إنه يهتـم بـ... يهتـم بـ...، آه، مـا الـذي يهتـم به في نهايـة المطاف؟ ويظهـر الارتياب الذي فـي قلبـه فجأة، ويصيبه الفزع إذا كشـف النقـاب عنه. وعلى كل حال، إنه يفتقر إلى الشـجاعة الحقيقية كتحمل مسؤولية ذلك الارتياب، ثم يغير دفة الحديث، ويتباهى بالموديلات التي رسـمها فـي المقاطعـة، ولا يعـرف عددهـا، ومعظمهـا عاريـات، وأثمانها باهظـة، وكان أجـره يحسـب بالسـاعة. وكلامه في هـذا الموضوع جـذب اهتمـام الخادمتين. وجيو تشـنغ الذي يـذرع المكان جيئة وذهابـا ويقوم على رعايـة الزبائن، يجلس ويحـدق في جياقوي قنـغ الجالـس أمامـه من أعلى إلى أسـفل، ولسـان حالـه يقول: أنـت اسـتأجرت هاتـين الخادمتـين حقـا، أليس كذلك؟ ويشـمر جياقوي قنغ عن ساعده حتى يراه جيو تشنـغ، ويبيِّن للحاضرين السـاعة الفارهة «أديداس» فـي معصمه، ويقول: أرأيتم مثل هذه السـاعة؟ إنهـا هديـة من موديـل. لم أرسـم مجانا، بـل أعطاني سـاعة أيضـا. وعـلام يدل ذلك؟ يـدل على تباين المسـتويات بين البشـر. واهتمام الإنسـان بالفن ينبع من ممارسـة الفنان نفسه للفن! يقول ويخلع السـاعة ويضعها بقوة علـى الطاولة، قائلا: ولكن، أليست هذه الساعة زهيدة الثمن، وسوارها من البلاستيك الجديـد الذي لا أتحملـه، لا أتحمله حقـا، آه، جلدي يعاني من الحساسـية. ثم يخبط على السـاعة الممددة على الطاولة، كأنما

هي عبء فوق كاهله، واضطر أن يتحمل هذا العبء من أجل إقامة أواصر الصداقة، وهل هناك في جعبة جيوتشنغ كلمات يتفوه بها أمام مثل هذه الساعة التي لا ريب فيها؟ كلا. وجميع الجلساء في الحجرة الخاصة لا يرتابون في الثقة إزاء جياقوي قنغ في التو. ويعد ذلك من سفائف الأمور في مركز المدينة، كما يعد من الأشياء المحبوبة أيضا. جيوتشنغ لا يدخر وسعا، ويحث جياقوي قنغ على احتساء الخمر ويشجعه على تناول الخضراوات، ويدفع أمامه طبق قوقحان المروج النيئ. جياقوي قنغ يلتقط بالعودين كمية كبيرة من قوقحان المروج ويمضغها، وفي تلك الأثناء يستغرق في التأمل والتفكير العميق، إنه ربما يحتاج إلى اللحوم بشكل أكبر، فمنذ مغادرته لتلك المحافظة التي التقط فيها صورا للدجاج المشوي، وهو يتحمل ثمن الطعام على مضض. وعلى أي حال، إنه لا يستطيع أمام جيوتشنغ المبتذل الكشف عن رغائبه وتطلعاته، وأن تغذيته ليست جيدة. وبينما يمضغ بملء فمه قوقحان المروج، يرى خادما يدخل من الباب الخارجي ويخبر جيو تشنغ بأن رئيس المحافظة قد حضر ودلف إلى الحجرة الخاصة المجاورة. ينهض جيوتشنغ في التو ويخرج بسرعة وتتبعه الخادمتان.

بقي جياقوي قنغ وحيدا في الحجرة الخاصة بالمطعم، وفي يده العودان، يمكنهما الانطلاق صوب اللحم فوق الطاولة. وعلى كل حال، طاولة الطعام تكفي لأن يأكل ويشرب في هدوء وأناة، ويضيع العودين، وبات كله آذان صاغية لأن مناقشة الموضوعات في الحجرة المجاورة جعلته يدرك فجأة مدى أهمية مركز المحافظة

بالنسبة إلى رئيس المحافظة. ويصغي بأذنيه، وينبعث صوت مبهم لتبادل العبارات الودية، وكان صوت جيوتشنغ بارزا، ومنظر رئيس المحافظة مألوفا، جياقوي قنغ يستغرق في تفكير عميق. إن مصلحة السياحة بالمحافظة صرفته من عمله، بيد أنه اكتشف على غرة أنه يحتاج إلى وحدة عمل حقا، وربما رئيس المصلحة يبعثه ليصعد الجبل ويحصي عدد الأحجار، وتذكر بوضوح لا يضاهى وقتئذ تلك السنين التي تصبب فيها عرقه بغزارة وهو يصطحب السياح يصعدون درجات السلالم ذات الحجر الأخضر التي يبلغ عددها عدة مئات، ولذلك ظفر بالتكريم والثناء من قبل المصلحة. إذن، الآن، من يستطيع مساعدته في العودة إلى مصلحة السياحة مرة أخرى؟! لا شك إنه رئيس المحافظة. أجل، ورئيس المصلحة أيضا. ولم يعرهما اهتماما أبدا، واليوم، والآن يرهف السمع لحظة، كما يفكر لحظة، وتثبط همته فجأة أيضا. ولايزال مصرا على عدم الاكتراث بهما، ونفسه تغلي غضبا. ثم يشعر في الحال بأن الإصغاء إلى كلامهما يعد في حد ذاته سلوكا غير مهذب. ويحتسي بشراهة جرعة كبيرة من عرق جيو تشنغ، ويلتهم بسرعة اللحم البقري بصلصة الصويا، ويعلن في سره ابتذال وحقارة جيو تشنغ. ويعقد العزم بقوة على أن يستعيد مركزه ومنصبه كأنه يعتزم اجتياز الجبل الشرقي الشاهق. وأعد لنفسه عدة محاور للنضال والكفاح تحت تأثير احتساء العرق، وينوي الاضطلاع بها في الحال. وإذا لم ينتظر أن يودع يو تشنغ، فإنه يجب عليه أن ينصرف بسرعة وفي عجالة من تلك الحجرة الخاصة.

وتبقى النوايا - على كل حال - نوايا ورغائب. وفي نهاية المطاف، لم يتصرف جياقوي قنغ بسرعة، بل لعبت الخمر برأسه، وسقط فوق طاولة الخمر حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وكما نعرف أنه ينهض من فراشه في العاشرة صباحا. ويعد ذلك العمل الوحيد الأكثر تنفيذا والأكثر التزاما من جانبه منذ عدة سنوات خلت. ولكن اليوم الوحيد الأكثر تنفيذا والأكثر التزاما من جانبه، منذ عدة سنوات خلت. ولكن اليوم جياقوي قنغ لا يريد أن يفتح عينيه، ويدرك أنه يمدد جسمه فوق أريكة الحجرة الخاصة، ويعرف أنه ليس ثملا بصورة خطيرة، ويعرف أيضا أنه لا يستطيع أن يمدد طويلا في مطعم الآخرين. كما يعي يجب عليه أن يفتح عينيه حقا.

ولكن إذا فتح عينيه، أيستطيع أن يذهب إلى أي مكان؟

إذن، هل يفتح عينيه أم يواصل التظاهر بالنوم؟ وفي الواقع يعتبر ذلك مشكلة بالنسبة إليه.



المترجم في سطور

د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

- رئيس قسم اللغة الصينية وآدابها - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- من مواليد المنصورية، مصر، ١٩٥٩.
- خريج قسم اللغة الصينية بجامعة عين شمس في العام ١٩٨١.
- اختصاص بالصينولوجيا من دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.
- له مقالات باللغة العربية عن الأدب الصيني الحديث الكلاسيكي، ودراسة عن الأدباء الصينيين، وأخرى عن الأمثال الصينية والعربية باللغتين الصينية والعربية.
- ترجم المسرحية الصينية «شروق الشمس»، ونشرت في سلسلة «من المسرح العالمي»، وزارة الإعلام في الكويت، مايو ١٩٨٨، العدد ٢٢٤.
- راجع الترجمة الصينية لكتاب «الإمارات العربية المتحدة - شعب عريق ودولة فتية»، الصادر عن دار الثقافة والفنون في ديسمبر ١٩٩٣، بكين، الصين الشعبية.
- ترجم كتاب «الصينيون المعاصرون» من الصينية إلى العربية، إصدار سلسلة «عالم المعرفة»، الكويت، العددان ٢١٠ و٢١١.
- عضو اتحاد كتاب مصر وعضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة.

المراجعة في سطور

لي جيه

- من مواليد بكين - جمهورية الصين الشعبية في العام ١٩٦٦.
- حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة من كلية طب العاصمة بكين، الصين الشعبية.
- من مسلمي جمهورية الصين الشعبية.
- تعلمت اللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية، القاهرة.
- تقوم بتدريس صوتيات اللغة الصينية وآدابها بقسم اللغة الصينية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- خبيرة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية بشعبة الدراسات الإسلامية في كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول المشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروريان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندچي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان
369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي

ما صدر من هذه السلسلة

374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن تورووب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو ميند يس

الأبدية بعيدة جدًا

في هذا العدد تقدم الكاتبة تيه نينغ في رائعتها الأدبية الشخصية النسائية الفريدة الفتاة باي دا شنغ. وتتميز هذه الفتاة بأنها تحتضن – دائما وأبدا – مشاعر متدفقة ولّى زمانها ويغص بها صدرها. فهي مفتونة بالرجل الذي تحبه لكنها تفشل في حبها دوما. فهنا، تسجل لنا الكاتبة تجاربها العاطفية في لمحات خاطفة أو في لوحات انطباعية سريعة لا تسلسل فيها ولا استمرار. من هنا، تمضي الكاتبة في البحث عن سر الحياة الإنسانية وعن معنى التجربة الإنسانية. وقد رصدتها كلها في تغيرات المشاعر والعواطف لدى باي دا شنغ. وعندما قامت الكاتبة بإضفاء الطابع الخيري على شخصية الفتاة، فإنها لم تجعل الخير رخصة مرور فعالة للإنسان الخيّر، بل على العكس جعلتها تتعرض لكثير من المصاعب والأعباء النفسية والانتكاسة في عواطفها ومشاعرها، فحظها مع الحب غير مواتٍ ولا مطيع. في نهاية المطاف، يركع أمامها شاب يحاول الإفادة من ظروفها، وقد تخلى عنها من تحبه، إنه الشاب «قوى هونغ». وترفضه، لكنها تفكر مليا... هل تقبله لاحقا أم لا؟! كما يحتوي العدد على قصص أخرى للكاتبة نفسها، وهي: «آه، أنتِ الفتاة شيانغ شيويه»، «من يستطيع أن يجعلني خجولة؟!» ..وهي قصص شخصياتها نسائية أيضاً، بالإضافة إلى قصة «الصمغ العربي».

رقم الإيداع: 2013/632
ردمك: 978-99906-0-405-4





تيه نينغ

- ولدت تيه نينغ في بكين في العام 1957، وهي من أشهر الكاتبات المعاصرات في الصين. بدأت تيه نينغ كتابة القصص القصيرة في المدرسة المتوسطة، وبعد أن تخرجت في باودنغ في العام 1975، سافرت إلى الأماكن الريفية لتتعرف على حياة المزارعين الصينيين، وفي السنة ذاتها نشرت دار بكين للنشر قصتها الأولى «المنجل الطائر».
- في العام 2006، عندما كانت في سن التاسعة والأربعين، أصبحت تيه نينغ أول وأصغر امرأة منتخبة لرئاسة رابطة الكتاب الصينيين.
- حصلت تيه نينغ عن قصتها القصيرة «آه، شيانغ شيويه» على الجائزة الوطنية في العام 1982، كما حازت جائزتين وطنيتين في العام 1984 لقصتيها: «القميص الأحمر الخالي من الأزرار» و«موضوع يونيو المهم»، كما أنتجت أفلام سينمائية قائمة على قصصها القصيرة.
- في العام 2003، صوّت قراء مجلة «روايات مختارة» على أن تكون تيه نينغ واحدة من أفضل عشرة كُتّاب في القرن العشرين في الصين.